الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

الوعد والوعيد
فى سورة الذاريات

دراسة تحليلية موضوعية

دكتور

سيد زكى خليل إبراهيم

أستاذ مساعد التفسير وعلوم القرآن

كلية الدراسات الإسلامية والعربية بنات بنى سويف

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

مُقدّمة

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله الذى أنزل كتابه تبياناً للعالمين، ونذيراً وبشيراً للخلق أجمعين، وهدىً ورحمةً للمتقين، ونوراً وضياء للمحسنين وذكراً وبلاغاً للمستبصرين، ووعداً ووعيداً لجميع المكلفين وحجة بالغة إلى يوم الدين.

والصلاة والسلام على سيدنا محمد السراج المنير، الداعى بإذن ربه البشير النذير الهادى إلى صراط الله العلى القدير.

وعلى آله وأصحابه الصادقين، ومن تبعهم على ما كانوا عليه من الهدى والحق المبين.

وبعد،،

فقد وقع لى أن تخيرت بحسن توفيق الله تعالى سورة الذاريات المشتملة على الإيمان بالوعد والوعيد لهذه الدراسة التحليلية المتعمقة لموضوعها الذى هو أصل من أصول الدين.

وقد أحسست إحساساً عجيباً بما ضمنه الله تعالى هذه السورة الكريمة من بسط فى بيان حقيقة الوعد والوعيد وما يستلزم منهما من الإيمان بالبعث والنشور بعد الموت والحساب والجزاء يوم القيامة وهما مبنيان على قاعدة مؤصلة فى آى القرآن، وهى قاعدة الثواب والعقاب، الثواب لمن آمن وأحسن العمل، والعقاب لمن جحد وأساء العمل، قال تعالى: (أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثاً وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لا تُرْجَعُونَ)[1].

---

(١) المؤمنون: ١١٥

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

إن الإيمان بالوعد والوعد أصل من أصول الدين، وقد أقيمت الأدلة السمعية والعقلية والحسية عليهما بما لا يدع لمدع شبهة أو إشكالاً، فقد أزيحت الشبه، وبين ما هو موهم الإشكال بأسهل طرق الإقناع.

والوعد والوعيد المذكوران في القرآن الكريم شاملان لوعد ووعيد الدنيا والآخرة، ولذا اشتمل القرآن على ذكرهما ومعالجة قضاياهما عن طريق التحليل تارة، وعن طريق القصص تارة أخرى وبهما معاً.

وهو ظاهر جداً في هذه السورة التي نتناولها بالتفسير والتحليل فقد كان المقسم عليه فيها لبيان أصله وخطره، وأن الإيمان بالوعد والوعيد على الوجه الذى ذكره القرآن الكريم، وشرحته السنة النبوية عمود أصول الدين، وأن الخلق خلقوا وكلفوا بمعرفته والعمل له، ولم يُخلقوا هملاً من غير أن يترتب على أعمالهم جزاء، إن خيراً فخير وإن شراً فشر.

ولما كان الوعد والوعيد من أسس الاعتقاد، فقد عنيت هذه السورة ببيانه المقسم عليه للتنبيه بشأنه وبيان منزلته في الاعتقاد.

وذلك عن طريق إقامة الدليل الموجب للإيمان بهما، وأنهما حق لا ريب فيه، إذ لو لم يكونا حقاً لكان خلق الخلق والكون عبثاً ولهواً، وهو محال في حق الله تعالى، إذ هو الحق، ولا يقول إلا الحق.

وكل ذلك بأسلوب الترغيب والترهيب بإيجاز مع إحكام بديع، ونظام عجيب.

وكذلك عن طريق قصص من أنكر الوعد والوعيد، وكان لدى المخاطبين طرف من قصص فكان ما جاء فى هذه السورة وغيرها بمثابة التفصيل والتأكيد لما كان من الوعيد الذى وقع عليهم بسبب إنكارهم وتكذيبهم، وعبرة وعظة لغيرهم أبد الدهر.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

والوعد للذين صدقوا بالرفعة والنصر والتأييد والعيش الحسن فى الدنيا والآخرة.

ولذا قال تعالى: (وَعْدَ اللَّهِ لا يُخْلِفُ اللَّهُ وَعْدَهُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ)[1]، ولما كان القرآن يشتمل على ثلاثة مقاصد، هى الثناء على الله بما هو أهله، وعلى التعبد والأمر والنهى، وعلى الوعد والوعيد إذ آيات القرآن لا تخرج عن هذه الامور[2].

فقد جاءت هذه السورة مشتملة على المقصد الثالث الذى هو النتيجة للمقصدين قبله، وهو الوعد والوعيد، وما يلزم ويتبع كل منهما من بعث ونشور، وحساب وجزاء، وثواب وعقاب، ونعيم وشقاء.

فالخير كله فى الدنيا والآخرة لمن آمن وصدق وعمل صالحاً والشر كله فى الدنيا والآخرة، لمن كذب وأنكر وعمل سيئاً. (وَلا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَداً)[3].

وعلى ما تقدم ذكره يكون الوعد في الخير والشر، يقال: وعدته بنفع وضر وعداً وموعداً وميعاداً فالوعد والميعاد يكونان مصدراً واسماً.

والوعيد يكون في الشر خاصة، يقال: أوعدته، مثال ما فيه خير قوله تعالى: (إِنَّ اللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ الْحَقِّ)[4] وقوله: (أَفَمَنْ وَعَدْنَاهُ وَعْداً حَسَناً)[5]، وقوله: (وَعَدَ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا)[6] الآية.

---

(١) الروم:٦

(٢) أسرار ترتيب القرآن للسيوطى ٤٧.

(٣) الكهف:٤٩

(٤) إبراهيم:٢٢

(٥) القصص:٦١

(٦) التوبة:٧٢

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

ومثال ما فيه شر قوله تعالى: (وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ وَلَنْ يُخْلِفَ اللَّهُ وَعْدَهُ)[1]، وقوله: (قُلْ أَفَأُنَبِّئُكُمْ بِشَرٍّ مِنْ ذَلِكُمُ النَّارُ وَعَدَهَا اللَّهُ الَّذِينَ كَفَرُوا وَبِئْسَ الْمَصِيرُ)[2].

ومما يتضمن الأمرين معاً قوله تعالى فى هذه السورة التى معا: (إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَوَاقِعٌ)[3] وفى غيرها قوله تعالى: (أَلا إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ)[4] فهذا وعد بالقيامة وجزاء العباد، إن خيرا فخير وإن شراً فشر ومثال ما جاء فى الشر خاصة قوله: (قَالَ لا تَخْتَصِمُوا لَدَيَّ وَقَدْ قَدَّمْتُ إِلَيْكُمْ بِالْوَعِيدِ)[5] وهذا من الإبعاد[6].

هذا وقد اتبعت فى التفسير التحليلى وبيان ما فى هذه السور من موضوع الوعد والوعيد ما يلى.

١ - ذكر جملة من آيات السورة تحت عنوان يتناسب مع مضمون هذه الآيات، ثم ربطها بما قبلها وما بعدها لإبراز الوحدة الموضوعية للسورة.

٢- أتبع ذلك ببيان معانى مفردات وغريب الجمل ثم ربط المعنى الافرادى بالمعنى التركيبى للجملة فى الآية لبيان المعنى المقصود حال الإفراد وحال التركيب.

---

(١) العنكبوت:٥٤

(٢) الحج:٧٢

(٣) المرسلات:٧

(٤) يونس: من الآية٥٥

(٥) ق:٢٨

(٦) المفردات للراغب.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

٣- ذكر القراءات الواردة فى الآية، سواء كانت سبعية أو عشرية أو شاذة، وبيان المعنى على تلك الوجوه من القراءات، وحل المشكل منها، ثم ذكر إعراب بعض المفردات والتراكيب فى جملة الآية، وبيان المعنى على تلك الأعاريب والمعانى المتداخلة منها والمتوافقة والمتخالفة، وذكر الراجح منها.

٤ - أنهى كل آية بعد ذكر ما تقدم ببيان عظمة وروعة وعلو النظم القرآنى، فى إيراد بعض الألفاظ دون أخرى، وبعض التراكيب دون بعض فى جمل الآية، لإبراز المعنى البيانى والإعجازى والإحكام فى هذه الجمل، وبيان أنه لا يتطرقَ إلى النظم القرآنى خلل لفظى أو معنوى بل هو كلام محكم، لأنه من مالك القوى والقدر سبحانه ثم ذكر المعنى العام لجمل الآيات، وبعض ما يستفاد منها ثم خاتمة لهذه الدراسة التحليلية الموضوعية.

وكان سبب إتباعى لهذه الطريقة، هو إعتقادى بأنها أوسع نظراً، وأشمل موضوعاً، وإن كان وراء آى القرآن ما وراءه.

ولكن حسبى أننى اجتهدت وأرجو الأجر والمثوبة فإن كان صواباً فبتوفيق الله تعالى، وإن كان غير ذلك فأرجو من الله تعالى أن يعفو عنى، فالكمال لله وحده، وحسبى أنى بشر، كما أسأله تعالى أن يتقبل هذا العمل وأن يجعله خالصاً لوجهه تعالى، وصل اللهم على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم تسليما كثيرا.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

تمهيد

اسم السورة:

إن أسماء سور القرآن الكريم قد جرت على عادة العرب وسننهم فى إطلاق الأسماء على الأشياء.

فالعرب تراعى في كثير من المسميات أخذ أسمائها من نادر أو مستغرب يكون فى الشيء، من خلق أو صفة تخصه أو تكون معه أحكم أو أكثر أو أسبق، لإدراك الرائى للمسمى، ويسمون الجملة من الكلام والقصيدة الطويلة بما هو أشهر فيها، وعلى ذلك جرت أسماء سور القرآن(١).

وقل تتعدد أسماء السورة الواحدة، وقد يكون لها اسم واحد غير أن التى تعدد اسمها غالبا ما يطلق عليها الأشهر من هذه الأسماء.

وهذا باستقراء فى صور القرآن، أن تذكر السورة باسم أهم وأغرب ما اشتملت عليه.

وعليه فقد أجمع العلماء والمفسرون على أن اسم هذه السورة الذاريات، وذلك لتضمها وتناولها لبيان الرياح وتوابعها وأنها تأتى بالسرور والرضوان مرة، وأخرى تأتى بالغموم والأحزان، والغبن والخسران، لأن من شأن الرياح الذرء والتفريق، فإذا أراد الله جمعت فكان ما أراد، وإذا أراد الله منها تفرقة فرقت والمصرف لكل ذلك هو الله تعالى.

---

(١) الإتقان فى علوم القرآن للسيوطى /١٦، والبرهان فى علوم القرآن للزركشى / ١ / ٢٧٠ / ٢٧١

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

وكان السر فى القسم بالرياح، وهى لا ترى، وإن كان ما تحدثه من النعمة أو النقمة أسبابه موجودة، كما أن المقسم عليه وهو الوعد والوعيد، وقد كذبوا بهما من لم يؤمن، وهم لا يشعرون بشىء من أسبابهما، وإن كان أسبابهما موجودة.

وقد ذكر الرياح فى سور أخرى، غير أن هذه السورة ذكرت بيان وتفصيل ما للرياح، وإبراز أسباب ذلك وأسباب الوعد والوعيد، فكانت هذه السورة أحق بهذا الاسم، وكان الأنسب لها اسم الذاريات.

- **مكيتها:**

هذه السورة مكية باتفاق المفسرين والعلماء، وجميع آياتها مكية، ولا يوجد خلاف بينهم فى ذلك.

- **عدد آياتها:**

عدد آيات هذه السورة كما هو فى المصحف الكوفى ستون آية باتفاق، كما هو فى كتاب العدد.

صلتها بما قبلها:

إن صلة السور بعضها ببعض سمة بارزة للقرآن الكرم، تؤكد الوحدة الموضوعية لسوره وآياته فالقرآن فى ترابط سرره وآياته كالبنيان المرصوص الذى قد انحكم بيانه.

وقد ختمت السورة التي قبل بذكر البعث الذى هو لازم للإيمان بالوعد والوعيد، واشتمالها على ذكر الجزاء والجنة والنار وغير ذلك ما هو وعد ووعيد، وافتتحت هذه بالإقسام على ما وعدوا وتوعدوا به من ذلك وإنه لصادق، وإن الجزاء واقع لا محالة وتلك هي المناسبة الأبرز بين السورتين.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

• موضوعها:

إن ارتباط آخر هذه السورة بأولها، ونهايتها ببدايتها، وعجزها مع صدرها، والمقسم به من المقسم عليه، وربط الأسباب بمسبباتها لأمر عجيب فيها، يحار العقل فى دقته وإحكامه ويجعل الكشف عن المزيد من المعانى والأسرار فيها لا يتناهى. وهذا شأن القرآن العظيم، معانى آياته وسر تركيبه لا يتناهى ولا يبارى فى موضوعه.

وموضوع هذه السورة ظاهر فى أنه بيان للوعد والوعيد وما ذكر فى ثنايا من القصص يدل على أنه أراد بيان كل منهما، وأنهما يقعان فى الدنيا والآخرة.

وأن الإيمان بهما أصل من أصول الدين، ومن آمن بهما فهو مؤمن بالبعث والنشور، المترتب عليه الحساب والجزاء، ومن أنكر وكذب بهما كافر بالبعث وما يترتب عليه من جزاء.

وقد ربط الوعيد الدنيوى ها بآلته التي كان عقاب المكذبين بها، وهى المقسم به – الرياح – بالقسم عليه الذى هو الوعيد.

وهذه الآلة التى هى جند وخلق من خلق الله تعالى، لها جانب خير وجانب شر، فانتفع المؤمنون بجانب الخير فيها بما أراده "الله تعالى"، فشكروا وصرفوا الخير فى مرضاته. وعوقب الكافرون بجانب الشر فيها بسبب تكذيبهم وعصيانهم.

وأيّاً ما كان فما ذكر من الوعد والوعيد فى هذه السورة إنما هو لون ونوع من أنواعهما الكثيرة التى ذكرت فى ثنايا آى القرآن الكريم.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

فالقرآن الكريم هو المبين والموضح لهذا المقصد الثالث من مقاصده التى أجملت فى أول سورة بقوله: (صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلا الضَّالِّينَ)[1].

وهذه السورة ذكرت الوعد والوعيد إجمالاً، وذكرت كثيراً من تفصيلات من أخذوا فى الدنيا بعذاب الاستئصال بسبب تكذيبهم وإنكارهم.

وبدأت بقصة إبراهيم عليه السلام وضيفه التى اشملت على الوعد والوعيد، وكان الرعد ببشارة إبراهيم وزوجه سارة بغلام بعدما بلغا مز الكبر عتياً، والوعيد بأخذ قرى قوم لوط بسبب عصيانهم وتكذيبهم.

وهكذا توالت السورة فى ذكر من أخذوا وعيداً بسبب جرمهم وتكذيبهم، مع ذكر كمال قدرة الله تعالى بخلقه لتلك الأجرام العظيمة من السموات والأرض، للتدليل والتأكيد على وعد ووعيد الآخرة بالحساب والجزاء، وقد ختمت بذكره، وذكر ذلك اليوم الذى يقع فيه ء وهو يوم القيامة، يوم يجزى كل بما قدم، بما يدل على كمال أحكامه فيما حكم وقضى، وكمال إحكامه فيما خلق وسخر من الأكوان.

---

(١) الفاتحة:٧

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

قول الله تعالى ذكره:

(وَالذَّارِيَاتِ ذَرْواً * فَالْحَامِلاَتِ وِقْراً * فَالْجَارِيَاتِ يُسْراً * فَالْمُقَسِّمَاتِ أَمْراً * إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَصَادِقٌ * وَإِنَّ الدِّينَ لَوَاقِعٌ)

(كمال قدرة الله تعالى الكونية فى إثبات الوعد والوعيد)

هذه السورة الكريمة جاءت وفق ترتيب المصحف بعد سورة ق والتى كان موضوعها الوعد والوعيد، والتدليل على البعث بعد الموت وقد أقسم هما على الوعد والوعيد للتأكيد على أنهما حق ثابت وهما واقعان لا مرية فى ذلك، ومثل ذلك أنه لا مرية فى أن رزقكم فى السماء، وأنكم خلق تنطقون، فقد جعلكم الله تعالى خلقاً ناطقاً يعبر عما فى نفسه، وقد أوجب على نفسه رزقكم من السماء، وهو العطر المتسبب عنه الرزق، رحمة منه وفضلاً.

وصدرت السورة بالقسم، وقد جاء ذلك تبعاً لعادة ما هو مستقر فى خطابهم، فى توكيد الخبر بالقسم ولم يكن القرآن بهذا مخالفاً عما هو مألوف عندهم من تنويع أسلوب الخطاب فى إقناع المخاطبين لاختلاف نسبة الإقناع عندهم وغايته تحقيق وتوكيد جواب القسم، وإن لم يكن هذا موجباً[1].

وقد جرى القرآن على عادتهم فى الخطاب، فأورده هنا على أحسن وأبدع وجه، وجاء فى هذه السورة على أمر عظيم، وهو وعده ووعيده سبحانه لعباده بالبعث والنشور بعد الموت والجزاء على العمل.

و القسم بفتحتين اسم من: أقسم بالله إقساماً إذا حلف وأصله من القسامة - بفتح القاف - وهى الأيمان تقسم على أولياء القتيل إذا ادعوا الدم.

---

(١) الإتقان فى علوم القرآن للسيوطى ٥٠٦، تهذيب وترتيب الشيخ محمد بازمول.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

يقال: قتل فلان بالقسامة، إذا اجتمعت جماعة من أولياء القتيل، فادعوا على رجل أنه قتل صاحبهم[1] ومعهم دليل دون البينة، فحلفوا خمسين يميناً أن المدعى[2] عليه قتل صاحبهم فهؤلاء الذين يقسمون على دعواهم يسمون قسامة.

والقسم فى القرآن هو: إن يقسم الله سبحانه بأمور على أمور فيقسم سبحانه بنفسه الموصوفة بصفاته أو آياته المستلزمة لذاته وصفاته[3].

وهو سبحانه يقسم على أصول الإيمان التى يجب على الخلق معرفتها، فهو يقسم على التوحيد تارةً، ويقسم على أن القرآن حق، وتارةً يقسم أن الرسول حق، وتارةً يقسم أن الجزاء والوعد والوعيد حق كما هو فى هذه السورة (إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَصَادِقٌ)[4].

والقسم غالباً ما يكون على جملة خبرية، كما فى قوله تعالى فى هذه السورة (فَوَرَبِّ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِنَّهُ لَحَقٌّ مِثْلَ مَا أَنَّكُمْ تَنْطِقُونَ)[5] وقد يكون على جملة طلبية، مع إرادة تحقيق وتوكيد المقسم عليه، أو تحقيق القسم، فيكون من باب الخبر.

ووجه تحقيقه وتوكيده، هو كون المقسم عليه من الأمور الغائبة والخفية فيقسم على ثبوتها وتحقيقها.

---

(١) المفردات للراغب / ٤٠٣.

(٢) المصباح المنير للفيومى جـ٢/ ١٦١.

(٣) التبيان فى أقسام القرآن، لابن قيم الجوزية / ٣.

(٤) الذريات:٥

(٥) الذريات:٢٣

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

أما القسم فى الأمور الظاهرة المشهورة، كالشمس والقمر والليل والنهار والسماء والأرض، فهذه يقسم الله بها ولا يقسم عليها[1].

وغالباً ما يكون جواب القسم مذكوراً، كما هو فى هذه السورة، هو قوله (إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَصَادِقٌ) وقد يحذف جواب القسم لدليل يدل عليه، ليأخذ الذهن بإعماله فى الآية ما يمكن أن يكون جواب القسم.

ولما كان القسم وسيلة من وسائل الإقناع، ويستخدم فى موضوع الاحتياج إليه وغايته تحقيق توكيد الخبر لزم أن يوجد علاقة وطيدة بين المقسم به والمقسم عليه، وهذا من خصائص القسم فى القرآن الكريم.

فإذا تؤملت العلاقة فى هذه السورة بين المقسم به (وَالذَّارِيَاتِ ذَرْواً) وما بعده، وبين المقسم عليه (إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَصَادِقٌ) ظهر وجه الشبه بين ما فى الريح من المنافع والعبر الكثيرة، من هبوبها وسكونها، ولينها وشدتها، واختلاف طبائعها وصفاتها ومهابها وتصريفها، وتنوع منافعها، وشدة الحاجة إليها، والوعد والوعيد مختلف الصفات والأجناس، والعبر، فوعد فى الدنيا بالنصر والتأييد ووعد بالرزق، ووعد بالعلم، ووعد بإقامة الحق وغير ذلك كثير، ووعد الآخرة بالجنة، ووعد بالنجاة من النار، ووعد بالمضى على الصراط ووعد بالأمن والأمان، وغير ذلك كثير، ووعيد فى الدنيا بالعذاب من ضل عن الهدى، ووعيد بالعيشة الضنك، ووعيد بالذل والهوان لمن دافع عن الباطل وغير ذلك كثير، ووعيد فى الآخرة وعيد لمن كفر بجهنم وبئس القرار، ووعيد بسوء العاقبة، ووعيد بالزلزال على الصراط وغير ذلك كثير، فالرياح فيها المنافع الكثيرة، ويوجد فيها الرياح المدمرة العاتية، وكذلك الوعد والوعيد فهذا وجه الشبه بين المقسم به، والمقسم عليه.

---

(١) التبيان فى أقسام القرآن، لابن قيم الجوزية / ٣.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

والظاهر أن المقسم به هنا هو هذه الأشياء التى جاءت بعد واو القسم، وهى: الذاريات، والحاملات، والجاريات، والمقسمات ولا ينبغى العدول عنه، فالعدول عنه خلاف الظاهر من اللفظ وما ورد من النهي عن الحلف بغير الله تعالي فهو خاص بنهي المخلوقين عن ذلك.

وأما الخالق فله أن يقسم ببعض مخلوقاته، وذلك للتنبيه على عظمها، أو عظم ما تقوم به، للتدليل علي عظيم خالقها، فعظم المخلوق دليل على عظم وتعظيم خالقه، ولذا جاء القسم بالشمس والسماء والقمر والنجم وغير ذلك من عظيم خلقه، وذلك كله يوجب الاعتبار وإحضار القلب عند التنبيه على عجائب الفطرة وبدائع القدرة[1].

وقيل: إن القسم في مثل هذا، إنما هو قسم به سبحانه لأن القسم تعظيم للمخلوق، ومثل هذا التعظيم لا يليق إلا بالله تعالى، ففي مثل هذا إضمار تقديره. ورب الذاريات، لأنه قد صرح به في قوله في نفس السورة ﴿ فَوَرَبِّ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ إِنَّهُ لَحَقٌّ مِثْلَ مَا أَنَّكُمْ تَنْطِقُونَ ﴾ وما حذف في موضع فقد ذكر في موضع آخر، فهذا يفسر ذاك.

والدليل على أن القسم بهذه الأشياء تنبيه بعظمها من غير تعظيمها إخباره سبحانه عن المعاندين في ألوهيته إقرارهم بأن هذه مخلوقات له ﴿ وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ لَيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ العَزِيزُ العَلِيمُ ﴾ فالله يذكر بأن ما أقروا به هو خلقه لهذه الأجرام العظيمة، وهو مستلزم تعظيم خالقها وتقديسه وإجلاله، وأنه المستحق لذلك، لا هذه الأشياء المخلوقة لأنه سيكون حلف مخلوق بمخلوق، فلا يملك العظمة التي هي الإيجاد من العدم والإفناء بعد الوجود.

---

(١) وضح البرهان فى مشكلات القرآن، للغزنوى النيسابورى ج٢ / ٣٢٨.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

وبهذا الوجه يظهر حكمة قسم الله تعالى بهذه الأجرام عظيمة الخلق فإقسامه سبحانه ببعض المخلوقات دليل على أنه من عظيم آياته، وإذا كان من آياته فيجوز أن يكون مقسماً به، ولا ينعكس.

والقسم لما كان يكثر في الكلام اختصر، فصار فعل القسم يحذف ويكتفى بالباء، ثم عوض من الباء الواو في الأسماء الظاهرة، والتاء في لفظ الجلالة (الله) ومنه قوله تعالى﴿وَتَاللهِ لَأَكِيدَنَّ أَصْنَامَكُمْ ﴾[1]

وجواب القسم هنا هو قوله تعالى ﴿ إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَصَادِقٌ ﴾ وهو المقسم عليه، وهو يشمل الوعد والوعيد.

(وَالذَّارِيَاتِ) من ذرته الريح تذروه وتذريه، يقال: ذرت الريح التراب وغيره، وأذرته أذهبته وطيرته وسفته[2].

فالذاريات هي الريح تسف التراب فتطيره، وكذلك تدفع غيره ولكن لما كان التراب أخفها طيرته فجعلته هباء منثورا، ومنه قوله تعالى ﴿ تَذْرُوهُ الرِّيَاحُ ﴾[3].

و(قرا) الوقر الثقل في الأذن، يقال. وقرت أذنه تقرر وتوقر، والوقر الحمل، ويقال الوقر بالفتح وقرئ به الثقل في الأذن، وبالكسر الحمل، وقد أوقر بعيره، وأكثر ما يستعمل الوقر في حمل البغل والحمار، والوسق في حمل البعير[4]. والمقصود بالحاملات هي السحب تحمل الماء.

و(الجاريات) جمع جارية، وهى السفن تجرى في الماء جرياً سهلاً ميسراً،

---

(١) سورة الأنبياء الآية ٥٧، والتبيان في أقسام القرآن / ٤.

(٢) المفردات للراغب / ١٧٨، ومختار الصحاح للرازي / ٢٢١.

(٣) الكهف / ٤٥، وانظر تفسير غريب القرآن لابن قتيبة / ٤٢٠.

(٤) المفردات للراغب / ٥٢٩، ومختار الصحاح للرازي / ٧٣٢.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

ومنه قوله تعالى ﴿وَلَهُ الْجَوَارِ الْمُنْشَآتُ فِي الْبَحْرِ كَالْأَعْلَامِ﴾[1] ويمكن أن يكون المراد بالجاريات يسراً النجوم[2]. ولا مانع من أن تكون الآية مشيرة إلى كل منهما، وذلك لسبح كل منهما، فالنجوم سابحة في السماء، والسفن سابحة في البحر، والسفن في البحر كالنجوم في السماء فإرادة كل منهما لا يأباه النص، بل هو المطلوب.

و(أمراً) هو الشأن، واحد الأمور، ويراد به هنا الجمع، فهو لفظ عام للأفعال والأقوال كلها[3].

و(توعدون) الوعد يكون في الخير والشر، يقال: وعدته بنفع وضر، والوعيد في الشر خاصة، يقال: أوعدته، وواعدته فمثال وعد في الخير قوله تعالى: ﴿ إِنَّ اللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ الْحَقِّ ﴾[4]

ومثال في الشر قوله تعالى: ﴿ وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ وَلَن يُخْلِفَ اللَّهُ وَعْدَهُ﴾[5] وقوله: ﴿ قُلْ أَفَأُنَبِّئُكُمْ بِشَرٍّ مِنْ ذَلِكُمُ النَّارُ وَعَدَهَا اللَّهُ الَّذِينَ كَفَرُوا ﴾[6].

ومما يتضمن الأمرين قول الله تعالى: ﴿ أَلا إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ ﴾[7] فهذا وعد بالقيامة وجزاء العباد، إن خيراً فخير، وإن شراً فشر[8].

---

(١) سورة الرحمن / ٢٤.

(٢) الضوء المنير على التفسير، لابن قيم الجوزية جمع على الحمد ج ٥ / ٤٤٧.

(٣) المفردات للراغب / ٢٤.

(٤) سورة إبراهيم / ٢٢.

(٥) سورة الحج / ٤٧.

(٦) سورة الحج / ٧٢.

(٧) سورة يونس / ٥٥.

(٨) المفردات للراغب / ٥٢٦.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

وهو هنا في هذه الآية يحتمل الأمرين الخير والشر.

و(لصادق) الصدق مطابقة الخبر الواقع[1]، وخبر الله تعالى تمام الصدق لأنه الحق الثابت الذي لا خلف فيه. فوعده تعالى صادق، كعيشة راضية والموعود به البعث والنشور.

و(الدين) من دان يدين، إذا ذل وخضع، والمقصود به هنا الجزاء بالأعمال والقصاص، ومنه يقال: دنته بما صنع[2].

و(لواقع) الوقوع ثبوت الشيء، ومنه الواقعة، وتطلق على الشدة والمكروه، وأكثر ما جاء في القرآن من وقع في العذاب والشدائد[3]، قال تعالى: ﴿وَوَقَعَ الْقَوْلُ عَلَيْهِمْ بِمَا ظَلَمُوا﴾[4] وهذا التفسير للذاريات والحاملات والجاريات والمقسمات، هو ما عليه جمهور المفسرين وقد صح رواية عن علي رضي الله تعالى عنه، وفي بعض الروايات ما يدل على رفع هذا التفسير إلى الرسول ﷺ، وهو تفسير مأثور، وإذا صحت الرواية وجب الأخذ بها، ولا يجوز العدول عنها، ولا يمنع دخول غيره في عموم المعنى.

وقيل: المقصود بـ (الذاريات) النساء الولود، فإنهن يذرين الأولاد كأنه شبه تتابع الأولاد بما

يتطاير من الرياح، وباقي المتعاطفات على ما ذكر قبل.

وقيل: الذاريات، هي الأسباب التي تذري الخلائق على تشبيه الأسباب

---

(١) المفردات للراغب ٢٧٨، والتعريفات للجرجاني.

(٢) تفسير غريب القرآن لابن قتيبة / ٤٢٠.

(٣) المفردات للراغب / ٥٣٠.

(٤) سورة النمل / ٨٥.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

المعدة بالبروز من العدم بالرياح المفرقة للحبوب ونحوها.

وقيل: هي الكواكب السبعة السيارة، وهو قول باطل، كما ذكر الإمام الألوسي[1]، لأنه لا يقول به إلا من زعم أنها مدبرة لعالم الكون والفساد.

والصحيح في هذا: ما روى عن علي رضي الله عنه مرفوعاً[2]، وكذا: روى عن عمر رضي الله تعالى عنه[3].

والتعاطف بالفاء لهذه الصفات هو على سبيل الترقي، ويمكن أن يكون على سبل التنزل، وذلك باعتبار وجهين أعلى وأدنى.

وقيل: الترتيب بالنظر إلى الأقرب فالأقرب من أهل الأرض وإن حملت جميع الصفات على واحد وهو الرياح، فهي لترتيب الأفعال والصفات، فالريح تذر الأبخرة إلى الجو أولاً حتى تنعقد سحاباً فتحمله ثانياً وتجري به ثالثاً ناشرة وسائقة له إلى حيث أمرها الله تعالى، ثم تقسم أمطاره رابعاً. ولذا قال ابن قيم الجوزية مبيناً أن ترتيب الآيات على ما ذكر من الرياح فالسحاب فالنجوم فالملائكة المقسمة للأمور: هو أحسن في الترتيب والانتقال من السافل إلى العالي، فإنه بدأ بالريح، وفوقها السحاب، وفوقه النجوم، وفوقها الملائكة المقسمات أمراً لله الذي أمرت به بين خلقه[4].

والنصب في قوله (ذروا) على أنه مفعول مطلق، لأن قوله (والذاريات) اسم فاعل يعمل عمل

---

(١) روح المعانى للألوسى م ٩ج ٢٧ص ٣.

(٢) الدر المنثور للإمام السيوطي ج ٧ / ٦١٤.

(٣) نفس المصدر ج ٧ / ٦١٤.

(٤) الضوء المنير على التفسير، لابن قيم الجوزية، جمع على الحمد ج ٥ / ٤٤٧.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

الفعل، وهو من مادة (ذروا) فالأنسب أن يكون مفعول مطلق، وذلك لتأكيد الفعل.

ونصب (وقراً) على أنه مفعول به، والعامل فيه (فالجاريات) ويجوز أن يكون منصوب على المصدرية، من باب: ضربته سوطاً.

ونصب (يسراً) على أنه صفة مصدر محذوف بتقدير مضاف والتقدير: فالجاريات جرياً ذا يسر، أو على أنه حال بتقدير: ميسرة [1].

و(أمراً) واحد الأمور، وهو منصوب على أنه مفعول به ويراد به الجمع ويجوز نصبه على الحال، بتقدير: مأمورة أو أن الوصف (المقسمات) منزل منزلة اللازم، بتقدير: تفعل التقسيم مأمورة.

و(ما) في قوله (إنما توعدون) موصولة، والعائد محذوف والتقدير: إن الذي توعدونه أو توعدون به، ويحتمل أن تكون (ما) مصدرية، والتقدير: إن وعدكم أو إن وعيدكم.

وحمل (ما) على الأمرين هو الظاهر، فكل من الوعد والوعيد صدق ومتحقق الوقوع.

وقرئ سبعية (والذاريات ذروا) بإدغام التاء من آخر الذاريات بالذال في (ذروا) [2].

وقرئ سبعية (وقراً) بفتح الواو، على أنه مصدر: وقره إذا حمله، ذكره

---

(١) روح المعاني للألوسي م ٩ج ٢٧ص ٣.

(٢) قرأ بها أبو عمرو وحمزة، انظر البحر المحيط لأبى حيان ج ٨ / ١٣٣.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

الإمام الزمخشري[1]، وهو تسمية للمجهول بالمصدر[2].

و تخصيص المذكورات بالإقسام بها رمز إلى شهادتها بتحقق الجملة المقسم عليها من حيث أنها أمور بديعة، فمن قدر عليها فهو قادر على تحقيق البعث الموعود.

وإيثار القسم بالرياح دون غيرها، لما فيها من العبر، ولأنها أشد خلق الله تعالى، مع أنها لا ترى بالعين المجردة، وذلك للتدليل على كمال ربوبية الله تعالى ووحدانيته، وصفات جلاله وحكمته العظيمة، وكل ما دل على صفات جلاله دل على صدق رسله.

وهذا يوجب ألوهيته سبحانه على خلقه أجمعين، وأنه المعبود بحق.

وذكر توابع القسم من السحاب الذي هو أعظم آيات الله تعالى في الجو، في غاية الخفة، ثم يحمل الماء والبرد، فيصير أثقل شئ، فيأمر الرياح فتحمله على متونها، وكذا السفن الجاريات، أرسل لها الرياح التي تسوقها على الماء، سوق السحاب على متون الرياح والملائكة الذين يدبرون العالم العلوي والسفلى، وما لا يشاهد.

ولذا لما خلق الملائكة من البهاء، والحسن، وما فيهم من القوة والشدة، ولطافة الجسم وشبهها بالريح في صعودها وهبوطها، ولذا جاءت في سوق ذكر الرياح فكل توابع القسم لها علاقة وطيدة بالقسم الأول الذي هو الرياح، والتوابع إنما هي من فعلها، ولذلك قدمت في القسم وكان الترتيب تنازلياً.

وإيثار تخصيص ذكر السحاب الحامل للماء، والسفن الحاملة للبشر من مكان

---

(١) الكشاف للزمخشري ج ٤ / ١٣، والبحر المحيط لأبى حيان ج ٨ / ١٣٣.

(٢) البحر المحيط لأبى حيان م ٨ / ١٣٣.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

إلى مكان، وكذا البضائع التي تنقل من بلد إلى بلد لأن الأول به حياة الخلق، والخلق في حاجة إليه دائماً، والذي يحمله لهم بأمر الله تعالى الرياح، والسفن لما فيها من تبادل المنافع الكثيرة، وهي تجرى على الماء بواسطة الرياح بإذن الله تعالى، ثم الملائكة الذين يشبهون الرياح في نشر الخير المادي والمعنوي بأمر الله تعالى.

وإيثار الإتيان بـــ (ما) دون الذي في قوله (إنما توعدون) لإفادة الإبهام في الإبهام، ولذا فهي دالة على عموم الاحتمال بين كل وعد، وكل وعيد، وألفاظ القرآن منظومة على المعنى الأعم والتعبير بـــ (ما) لشمول جواب القسم على الوعد والوعيد بعمومهما.

وإيثار الوصف (لصادق) ولم يأت: لصدق، لبيان أن وعده صادق في نفسه، وليس مجرد كونه موصوفاً بالصدق، كما يوصف المتكلم بأنه صادق في كلامه، فكل ما أخبر به سبحانه من الوعد والوعيد صادق في نفسه على ما وعد وتوعد عليه، وليس لمجرد وقوعه صادق، فكلامه صادق ووعده صادق فهو وصف ذاتي، وليس وصفاً عرضياً.

ومثل ذلك يقال في قوله (لواقع) إذ هو واقع في نفسه وليس مجرد الوقوع، بل هو واقع وقوعاً حتمياً.

• مغزى الآيات:

أقسم الله تعالى بالرياح التي هي من أعظم آياته الدالة على عظمته وربوبيته وقدرته، ثم أقسم

بالسحاب، وهو من أعظم آياته في الجو، وهو في غاية الخفة، ويحمل الماء والبرد، فيصير أثقل شيء فيأمر سبحانه الرياح فتحمله على متونها، وتسير به حيث أمرت.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

ثم أقسم بالجاريات يسراً من النجوم و السفن، وقد أمسك كل منهما، فأمسك النجوم في نظامها وترتيبها، وأمسك السفن على وجه الماء، وسخر لها البحر، وقد أرسل لها الرياح التي تسوقها على الماء سوق السحاب على متون الرياح.

ثم أقسم سبحانه بالملائكة الكرام الذين وكل إليهم تدبير العالم العلوي والسفلي بأمره تعالى وهو

قادر على إيصال أمره من غيرهم إذ هو الغني الحميد.

وهذه الأمور العظام التي أقسم بها كان على صدق وعده ووقوع جزائه بالثواب والعقاب، وأنه حق كائن، ووعد صادق لا خلف فيه ولا كذب.

• **بعض ما يستفاد من الآيات:**

١ - القسم في القرآن الكريم لبيان عظم المقسم به الدال على عظيم الخالق له سبحانه، وبيان كمال ربوبيته وكمال تدبيره في خلقه.

٢ - أقوى خلق الله تعالى الريح، وتارة تكون رحمة، وتارة تكون العذاب فالمطر ريح، والسفن ريح، والرحمة ريح، والعذاب ريح فهي أنواع كثيرة.

٣- النجوم في السماء هداية للخلق في طريق البر والبحر، وهي هداية كذلك في طرق العلم بالخالق سبحانه، وبيان كمال قدرته وعلمه وحكمته، والمبدأ والمعاد والنبوة، ودلالتها للعقول في الهداية أظهر من دلالتها على الطرق الحسية.

٤ - كل حركة في السموات والأرض، من حركات الأفلاك والنجوم والشمس والقمر والرياح وغير ذلك، هي ناشئة عن الملائكة الموكلين بأمر ذلك ولو شاء ربك لأوصل أمره من دونهم فهو غني عن العالمين.

٥ - حتمية وقوع ما يوعد الخلق من أمر الساعة، والثواب والعقاب.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

قول الله تعالى ذكره:

﴿ وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الْحُبُكِ ۞ إِنَّكُمْ لَفِي قَوْلٍ مُخْتَلِفٍ ۞ يُؤْفَكُ عَنْهُ مَنْ أُفِكَ ۞ قُتِلَ الْخَرَّاصُونَ ۞ الَّذِينَ هُمْ فِي غَمْرَةٍ سَاهُونَ ۞ يَسْأَلُونَ أَيَّانَ يَوْمُ الدِّينِ ۞ يَوْمَ هُمْ عَلَى النَّارِ يُفْتَنُونَ ۞ ذُوقُوا فِتْنَتَكُمْ هَذَا الَّذِي كُنْتُمْ بِهِ تَسْتَعْجِلُونَ ﴾

(اضطراب أقوال المشركين في القرآن والبعث)

هنا، لما أخبر سبحانه عن ثبات خبره عن طريق القسم بنفسه أو ببعض مخلوقاته، أتبعه الإخبار عن وهى كلام المشركين المعاندين المنكرين لوعده ووعيده فقال مقسماً عليه لمبالغتهم في تأكيد مضامينه.

و(الحبك) جمع حبيكة، وهو في الأصل إجادة النسج، يقال: حبك الثوب إذا أجاد نسجه، وحبل محبوك إذا كان شديد الفتل. وقرأ الجمهور (حبك) بضم الحاء والباء.

وقرئ (حبك) بضم الحاء وسكون الباء، جمع حبكة، كطرفة وطرف، وقرئ بكسر الحاء والباء،وقرئ غير ذلك[1].

السماء: يطلق على كل ما علاك، والسياق هو الذي يقيد المقصود بالذي وصف بالعلو، فقد يكون السماء الجرم المعروف، وقد يكون السحاب، وقد يكون السقف، كما في قوله تعالى ﴿فَلْيَمْدُدْ بِسَبَبٍ إِلَى السَّمَاءِ ﴾[2].

و(ذات) تأنيث ذو، بمعنى صاحبة، والمراد صاحبة الطرق.

والمراد به هنا الآيات المحتبكة بطرائق النجوم المحكمة، الحسنة الصفة

---

(١) البحر المحيط لأبى حيان جـ ٨ / ١٣٤.

(٢) سورة الحج / ١٥.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

الجيدة الرصف والزينة حتى كأنها منسوجة.

والمقصود إرادة الخلق الحسن الشديد ذات الطرائق المتموجة[1]. بطرائق النجوم المحكمة، الحسنة الصنعة، الجيدة الرصف والزينة، حتى كأنها منسوجة.

فالسماء جامعة بين جمال الصنعة وجليل الآثار، وبين القطع والإختلاط، والإتقان والإختلاف.

وأصل الحبك الإحكام في امتداد واطراد، والإقسام بهذا الخلق لإحكامه وعظمه وجماله، وهو

يرشد إلى عظيم خالقه سبحانه، فهو الذي أتقن صنع كل شيء، وهو اللطيف الخبير.

و(مختلف) الاختلاف والمخالفة أن يأخذ كل واحد طريقاً غير طريق الآخر في حاله أو قوله، فهما ضدان، لأن كل ضدين مختلفان، وليس كل مختلفين ضدين[2].

والمقصود اختلاف أقوال المشركين في القرآن والوعد والوعيد والنبي ﷺ اختلافات متضادة متباينة، فيقولون: سحر شعر كهانة، وقيل اختلافهم في الحشر منهم من ينفيه ومنهم من يشك فيه.

وجواب القسم قوله ﴿ إِنَّكُمْ لَفِي قَوْلٍ مُخْتَلِفٍ ﴾ ويمكن أن يكون الخطاب هنا عاماً للمؤمنين والكافرين، كما أن جواب القسم السابق يشملهما.

واختلافهم كونهم مؤمناً بالرسول وبما جاء به، وكافراً بالرسول وبما جاء به.

---

(١) تفسير ابن قيم الجوزية ج ٥ / ٤٥٢.

(٢) المفردات للراغب / ١٥٦.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

والقولان تشملهما الآية، فالخلاف واقع بين المشركين الكافرين في حقائق هذه الأصول بين نافٍ وشاك، وواقع بين المؤمنين والكافرين، فالمؤمنون يثبتون كل هذه الأصول، والكافرون ينفون ويجحدون هذه الأصول.

وحمل الآية على العموم المفصل أولى من تخصيصها بفرد، والمقصود أن المخاطبين في اختلاف عظيم من القول في أمر القرآن والآتي به، وجميع أمر دينكم وغيره مما تريدون به إبطال الدين الحق، كاختلاف طرائق السماء التي لا تكاد تنتظم، ولا يعرف أولها من آخرها.

فإنه لا يكاد هذا القول إذا عرضه الناقد على الفكر النافذ ينضبط بضابط، ولا يرتبط برابط.

و(يؤفك) الإفك كل مصروف عن وجهه الذي يحق أن يكون عليه، ومنه قيل للرياح العادلة عن المهاب مؤتفكة، قال تعالى: ﴿ وَالْمُؤْتَفِكَةَ أَهْوَى ﴾[1] وقوله جل وعلا ﴿ قَاتَلَهُمُ اللهُ أَنَّى يُؤْفَكُونَ﴾[2] فهم يصرفون عن الحق في الاعتقاد إلى الباطل، ومن الصدق في المقال إلى الكذب، ومن الجميل إلى القبيح.

والجمهور على قراءة (أفك) مبنى للمفعول، وعليه فالمعنى: صرف الصرف الذي لا صرف أشد منه وأعظم، لأنه هالك في الأصل.

وقيل: من صرف في سابق علم الله تعالى أنه مأفوك عن الحق لا يرعوى[3] وضعف لأن العلم السابق ليس مؤثراً في أفعال العباد.

وقيل: يصرف بسببه من أراد الإسلام بأن يقول: هو سحر هو كهانة.

---

(١) سورة النجم / ٥٣.

(٢) سورة التوبة / ٣٠.

(٣) البحر المحيط لأبي حيان ج ٨ / ١٣٤.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

وقيل المعنى: يصرف عنه بتوفيق الله تعالى إلى الإسلام من غلبت سعادته.

وهذا على أن يكون في قول مختلف للكفار، إلا إن عرف الاستعمال في أفكه الصرف من خير إلى شر، فلذلك لا تجده إلا في المذمومين.

وقرئ (أفك) مبنى للفاعل، والمعنى: من أفك الناس عنه[1] وهم المشركون.

والمقصود أنه يصرف بأيسر أمر وأسهله عن سنن الاستقامة، ويقلب من وجهه لقفاه عن هذا القول من صار لا يصدر عنه قول أو فعل إلا كان مقلوباً وجهه إلى قفاه، لا يمكن أن يأتي منه بشئ، على وجهه فكأنه لا مأفوك سواه لشدة إفكه وعجيب أمره.

ويمكن أن يكون المقصود يصرف عن القول المختلف الذي هو اختلاف المشركين والكافرين في القرآن والنبي ﷺ والوعد والوعيد من استقام على الحق، وأتى بكل شيء على وجهه ولم يختلف عليه ماجاء به النبي ﷺ، وهو المؤمن الذي أذعن للحق، ولم يكن مأفوكاً.

والآية تحتمل الوجهين، بسبب الضمير في قوله (عنه) فجائز عوده إلى هذا أو ذاك، إلا إذا ثبت لغة استعمال الإفك في الصرف من خير إلى شر، فيتعين القول الأول وهذا يحتاج إلى دليل واثبات الدليل بعيد، لأن مدلول مادة (أفك) التي بمعنى صرف صالحة لكل من المعنيين، فبقى أن يكون السياق مقيداً لواحد منهما، والظاهر أنه لم يقيد واحد منهما، بل ذكر ذلك من غير تقييد، فصح حمل الآية على المعنيين، ولا مانع في ذلك، إذ هو من باب حمل المعانى الكثيرة لعدم الاختلاف أو التضاد.

ومعلوم أن القرآن جاء باللفظ الأعم.

---

(١) نفس المصدر ج ٨ / ١٣٥.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

و(قتل) هذا اللفظ دعاء عليهم، وهو من الله تعالى إيجاد ذلك واستعمل القتل بمعنى اللعن تشبيهاً للملعون الذي يفوته كل خير وسعادة بالمقتول الذي تفوته الحياة وكل نعمة[1].

فالدعاء بالقتل أو اللعن هو تمني الإفناء والإعدام لمادة هذا الجنس. وهم الكذابون الذين قالوا في النبي ﷺ كاذب وشاعر وساحر، خرصوا ما لا علم لهم به[2].

و(الخراصون) الخرص الكذب، وكل قول مقول عن ظن وتخمين يقال خرص، سواء كان مطابقاً

للشئ أو مخالفاً له، لأن صاحبه لم يقله عن علم، ولا غلبة ظن ولا سماع، بل اعتمد فيه على الظن والتخمين[3]، قال تعالى: ﴿ إِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ ﴾[4].

و(غمرة) الغمرة معظم الماء الساترة لمقرها، وجعل مثلاً للجهالة التي تغمر صاحبها، قال تعالى: ﴿ فَذَرْهُمْ فِي غَمْرَتِهِمْ حَتَّى حِينٍ ﴾[5].

و(ساهون) السهو خطأ عن غفلة، وهو مذموم، ومنه قوله تعالى:﴿عَنْ صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ﴾[6]، فهم غافلون عما أمروا به[7] فقاتل الله تعالى وأهلك المتقولين عن غير سند من كتاب أو سنة أو أثارة من علم، وهم الذين في أعماق العمى

---

(١) حاشية الشيخ زادة ح / ٦٩٥.

(٢) تفسير غريب القرآن لابن قتيبة / ٤٢١.

(٣) المفردات للراغب / ١٤٦.

(٤) سورة الزخرف / ٢٠.

(٥) سورة المؤمنون / ٥٤.

(٦) سورة الماعون / ٥.

(٧) الكشاف للزمخشري / ٤ / ١٥.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

والضلال غارقون، وفي سكرهم وجهلهم الذي غمرهم مضطربون، اضطراب من يمشي في معظم البحر، فهو لا يكاد ينتظم له أمر من قول ولا فعل ولا حال، وهم عريقون في السهو والنسيان والغفلة والحيرة، فهم أصحاب ألوان متخالفة في كل أمر.

وقوله (ساهون) يحتمل أن يكون هو الخبر و(في غمرة) ظرف له.

وفيه بيان عراقتهم في السهو والمستلزم للنسيان والغفلة. بسبب ما ابتلوا به من العمى والضلال.

وإيثار (قتل) عن لعن وغيره لإرادة شمول الهلاك بجميع الوجوه بالدعاء عليهم، فهو لفظ جامع لجلب الشرور لهم إذ هم يستحقونها.

وإيثار (هم) على قوله (الذين هم) وهو ضمير الفصل الذي يفيد التخصيص بأن هؤلاء الذين وصلوا إلى هذا الاختلاف حالهم كحال المغمور في الماء غارق فيها وقد غمرته وغطته، فكذلك حال هؤلاء المختلفين قد غمرهم وغطاهم العمى والضلال، فهم في حيرة يعمهون، في أمر الوعد والوعيد.

و(أيان) بفتح الهمزة ظرف يستفهم بها عن الزمان والمكان المراد تفخيمهما وقيل: لا يستفهم بها إلا عن الزمان المستقبل أريد تفخيمه أولاً، قالوا: وهو الصواب، كما في هذه الآية هنا، وتقاربه في المعنى (متى) والمقصود: أي أوان، أو: أي وقت[1] وحين.

وقرئ (إيان) بالكسر[2]، فهم يسألون فيقولون متى يوم الجزاء.[3]

---

(١) المفردات للراغب / ٣٤.

(٢) معاني القرآن وإعرابه للزجاج ج٥ / ٥٢، والبحر المحيط لابن حيان ج٨ ص ١٣٥.

(٣) الكشاف للزمخشري ج ٤ / ١٥.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

و(الدين) من دان يدين إذا ذل وخضع، والمراد به هنا اليوم الذي يدان فيه الخلق فيجزون على أعمالهم.

و(يوم الدين) مبتدأ، و(أيان) خبره، تقدم عليه للاستفهام.

فهم يسألون على سبيل الاستهزاء والاستمرار حين بعد حين متى وقوع الجزاء الذي يخبرنا به رسولك.

فسؤالهم ليس استفساراً أو استفهاماً للتصديق بيوم الجزاء والعمل له، ولكنهم لما كانوا منكرين للبعث والجزاء بعد الموت كان سؤالهم سؤال استهزاء وسخرية. والمقصود أنهم لم يسألوا بأيان عن نفس زمان الجزاء في أى زمان هو، بل مرادهم زمان وقوع الجزاء متى هو، فجعلوا الزمان ظرفاً للحدث الذي هو الوقوع، لا نفي الزمان.

وإيثار التعبير بـ (أيان) دون: متى، لبيان فخامة وخطر ذلك الزمان المستفهم عنه، وأنه سيقع فيه أهوال عظام لا يكتنه كنهها إلا الله تعالى.

وإيثار (الدين) دون الجزاء، لشمول لفظ الدين له لزوماً، ولكل أنواع الخضوع والذلة والتسخير لجميع الخلق.

و(يفتنون) الفتن إدخال الذهب أو المعدن النار لتظهر جودته من رداءته، واستعمل في إدخال الإنسان النار والمقصود به عذابه، ولذا قال بعد (ذوقوا فتنتكم) أي: عذابكم[1] وترد الفتنة بمعنى الاختبار والامتحان، ومنه قوله تعالى: ﴿ وَفَتَنَّاكَ فُتُونًا ﴾[2].

---

(١) فتاوى شيخ الإسلام بن تيمية ج ٧ / ١١١.

(٢) سورة طه / ٤٠.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

فالفتنة تطلق على العذاب وسببه، ولذا سمى الله تعالى الكفر فتنة.

والحاصل أنهم لما أتوا بالفتنة التي هي أسباب العذاب في الدنيا سمي جزاءهم فتنة، ففتنوا أولاً بأسباب الدنيا وزينتها، ثم فتنوا بإرسال الرسل إليهم، ثم فتنوا بمخالفتهم وتكذيبهم، ثم فتنوا بعذاب الدنيا ثم فتنوا بعذاب الموت، ثم فتنوا في موقف القيامة، ثم الفتنة الكبرى التي أنستهم جميع الفتن قبلها، وهو فتنة العذاب.

والمقصود أن هذا العذاب يقع يوم هم على النار يحرقون وقرئ (يوم هم) بالرفع، وهو خبر مبتدأ محذوف، وقراءة النصب على أنه ظرف لعامل مضمر دل عليه كون السؤال عن زمان وقوعه. وإيثار الإتيان بضمير الفصل (هم) من قوله (يوم هم) لتخصيص هؤلاء المستهزئين بشتى ألوان الفتن في النار وكأنهم هم الذين يفتنون، لا غيرهم.

وإيثار تعدية (يفتنون) بـ (على) ليفيد مع الإحراق أنهم يعرضون عليها بأنواع من العذاب، وليس الافتتان مجرد عذاب بالنار.

وقوله (ذوقوا) الذوق يستعمل في كل ما يحس به ويجد ألمه أو لذته، وقال الخليل: الذوق في لغة العرب هو وجود طعم الشيء.

والاستعمال يدل على ذلك، كما في قوله تعالى: ﴿ وَلَنُذِيقَنَّهُمْ مِنَ الْعَذَابِ الْأَدْنَى دُونَ الْعَذَابِ الْأَكْبَرِ ﴾[1] فإن أريد الذوق بالفم قيد فيقال: ذقت الطعام، وذقت الشراب.

أما عند الإطلاق فمستعمل فيما يحسه الإنسان باطنه أو بظاهره.

و(تستعجلون) العجلة طلب الشيء وتحريه قبل أوانه وهو مقتضى الشهوة،

---

(١) سورة السجدة / ٢١.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

ويغلب وروده على سبيل الذم كما في قوله تعالى ﴿وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالسَّيِّئَةِ قَبْلَ الْحَسَنَةِ﴾[1] وقوله ﴿ وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ ﴾[2] وقوله ﴿ وَقَالُوا رَبَّنَا عَجِّل لَّنَا ﴾[3].

وجملة (ذوقوا فتنتكم) مقول لقول محذوف.

والتقدير: يقال لهم: ذوقوا فتنتكم... أو مقولاً لهم: ذوقوا.

و(هذا الذي) مبتدأ وخبر، ويمكن أن يكون (هذا) بدلاً من (فتنتكم) والتقدير: ذوقوا هذا العذاب.

قيل: والاستقلال خير من البدل.[4]

والمقصود أنه يقال لهم توبيخاً واستهزاءً في مقابل استهزائهم باستعجال العذاب والوعيد الذي وعدوا به ؛ ذوقوا عذابكم الذي كنتم تطلبون سرعة مجيئه، فقد جاءكم ونزل بكم.

وإيثار قوله (ذوقوا) في كل ما جاء من عذاب أحد في القرآن كما هو هنا، دون غيره من الألفاظ، مثل أن يقال: تعذبوا أو سؤو عذابكم، لبيان شمولية إحساس كل جزء في الجسم بالعذاب ظاهراً وباطنا، وليس مجرد ذوقه بالفم.

ولذا قال في موضع آخر (فَأَذَاقَهَا اللَّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ)[5] فجاء بلفظ (لباس) لتأكيد شمولية العذاب لهم، إذ اللباس مستعمل في كل ما يغشي الإنسان

---

(١) سورة الرعد / ٦.

(٢) سورة الحج / ٤٧.

(٣) سورة ص / ١٦.

(٤) البحر المحيط ج٨ / ١٣٥.

(٥) النحل / ١١٢.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

وباتبس به.

فالعذاب قد غطاهم وشملهم ظاهراً وباطناً، حيث كل جزء من أجسامهم حس بالجوع والخوف.

* معنى الآيات:

هذا قسم آخر جاء بعد القسم الأول، بما هو يلي الريح في الشدة والخلق، والحسن والإتقان، وهو السماء، ذلك البنيان العظيم ذات الطرائق المتعرجة، ولبعدها من العباد لا يرونها.

إنكم أيها الخلق في قول متباين فيما جاءكم من الحق، مثل تباين تلك الطرق التي في السماء،

وهذا القول المختلف المتباين خرص وباطل فقاتل الله المكذبين بالحق الواضح الذي لا شبهة فيه.

فما يكذب به إلا أولئك الذين في جهالة قد غمرتهم قلباً وقالباً، وغفلة قد غمرت قلوبهم، وحالهم أنهم يسألون سؤال استهزاء واستبعاد، عن وقت وقوع يوم الجزاء، فقوبلوا باستهزاء بليغ، بأنه يقع يوم هم على النار يعذبون، ويقال لهم على سبيل التوبيخ والتقريع: ذوقوا العذاب الذي كنتم تطلبون سرعة مجيئه ونزوله، فها أنتم فيه، وقد غمركم بأنواعه.

* بعض ما يستفاد من الآيات:

١ - إتقان وإحكام خلق الله تعالى، مع عظم حجمه، وأنه لا يعتريه النقص أو القدم مع مرور الزمن، بل يبقى كما هو عليه إلى يوم القيامة، وهذا دال على حقيقة وعده ووعيده.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

٢ - الدلالة على البعث والنشور بعد الموت: إذ القادر على استمرارية هذا الخلق العظيم على حالته مع مر الدهور قادر على إعادة الخلق الضعيف مرة أخرى.

٣- اختلاف المختلفون في الحق لا أصل له، بل هو تخرص وكذب.

٤ - اللهو والسهو سبب في الوقوع في الجهل والعمى.

٥ - جزاء الخلق من جنس أعمالهم، فإن آمنوا وعملوا الخير جوزوا بالنعيم، وإن كفروا وكذبوا فتنوا بالجحيم.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

* قول الله تعالى ذكره:

﴿ إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ۞ آخِذِينَ مَا آتَاهُمْ رَبُّهُمْ إِنَّهُمْ كَانُوا قَبْلَ ذَلِكَ مُحْسِنِينَ ۞ كَانُوا قَلِيلًا مِنَ اللَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ ۞ وَبِالْأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ۞ وَفِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ لِلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ﴾

(ما أعده الله تعالى لعباده المتقين من النعيم في الجنة)

لما ذكر سبحانه الذين فتنوا بالتكذيب والمخالفة لما جاءت به الرسل، ونزلت به الكتب، واضطرابهم في ذلك اضطراباً شديداً، ذكر سبحانه الذين خلصوا من هذه الفتن بالتقوى والعمل الصالح، فكانت لهم الجنات والعيون والخير والكرامة.

و(المتقين) جمع تقي، وهو من الاتقاء، والتقوى: جعل النفس في وقاية مما يخاف، وهي في تعارف الشرع: حفظ النفس عما يؤثر، وذلك بترك المحظور، وفعل المأمور.

فإن المتقين الذين كانت التقوى لهم وصفاً ثابتاً راسخاً، هم الذين جعلوا بينهم وبين الوقوع في التكذيب والمخالفة وقاية بالإيمان والطاعة.

و(جنات) جمع جنة، والجنة بستان ذي شجر، يستر بأشجاره الأرض[1] وقد تسمى الأشجار الساترة جنة.

و جاء (جنات) بالجمع لكون الجنان سبعاً، وهو من باب مقابلة الجمع بالجمع، ولكل جنة درجات وكل مؤمن عابد لله تعالى له جنة ودرجة بحسب إيمانه وعمله فيتأكد للذين كان وصف التقوى ثابتاً فيهم بساتين عظيمة، هم في داخلها ينعمون.

---

(١) المفردات للراغب / ٩٨.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

و(وعيون) جمع عين، وهو عين الماء، سمي بذلك لأنه ظاهر للعيون، ومنه ماء معين، كما في قوله تعالى ﴿ يُطَافُ عَلَيْهِمْ بِكَأْسٍ مِنْ مَعِينٍ ﴾[1] وقوله ﴿ فَمَنْ يَأْتِيكُمْ بِمَاءٍ مَعِينٍ ﴾[2] فالمتقون داخل هذه الجنات العظيمة النابع فيها تلك العيون، وهي في كل جهاتهم وأمكنتهم منها، إذ يكفي في الظرف أن يكون جزءاً من المظروف وهذا يدل على تمكن تلك العيون من الجنات، وتمكن أهل الجنة منها والجار والمجرور (في جنات) خبر (إن) والتقدير: إن المتقين مستقرون في جنات عظيمة، ومستقرون في عيون، تلك العيون في كل جهة من جهات الجنة.

وإيثار الظرف في قوله (في جنات وعيون) عن الاختصاص أو الملكية: لهم، لبيان قوة تمكنهم في الجنات الذي يتضمن الاختصاص والملكية، ولبيان أنهم لا ينفكون عنها أبداً. وهم في مجموعها لا في كل عين، ونظير ذلك قوله تعالى ﴿ إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَنَهَرٍ ﴾[3].

وكذا إيثار الجمع للجمع، بدل الإفراد (جنات) وكأنه يشير إلى أن كل واحد من المتقين له جنة.

و قوله (آخذين) الأخذ عبارة عن القبول عن قصد ورغبة مع الرضا، والأصل فيه: حوز الشيء، وتحصيله، ويكون تارة بالتناول والرضا كما هو هنا، وتارة بالقهر، كما في قوله تعالى ﴿ فَأَخَذَهُ اللهُ نَكَالَ الْآخِرَةِ وَالْأُولَى ﴾[4]. فالمتقون قابلون لكل ما أعطاهم الله تعالى، وهم راضون به فليس فيما أعطاهم إلا ما هو

---

(١) الصافات / ٤٥.

(٢) تبارك / ٣٠.

(٣) القمر / ٤٥.

(٤) سورة النازعات / ٢٥.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

متلقى بالقبول مرضي، غير مسخوط لأن جميعه حسن طيب، ومنه قوله تعالى: ﴿وَيَأْخُذُ الصَّدَقَاتِ﴾[1] فهو يقبلها ويرضاها[2].

و(محسنين) الإحسان فوق العدل، وذاك أن العدل هو: أن يعطى ما عليه ويأخذ ما له، والإحسان أن يعطى أكثر مما عليه ويأخذ أقل مما له، فالإحسان زائد على العدل، فتحرى العدل واجبه وتحرى الإحسان ندب وتطوع، ومنه قوله تعالى ﴿وَأَدَاءٌ إِلَيْهِ بِإِحْسَانٍ﴾[3] ولذلك عظم الله تعالى ثواب المحسنين، كما في قوله تعالى ﴿وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾ [4] فالمحسنون هم الذين قاموا بما كلفوا به وزادوا من جنسه تطوعا.

وجملة (آخذين) حال من الضمير المستكن في (جنات) والتقدير: إن المتقين مستقرون في جنات وعيون، حال كونهم قابلين عن رغبة ورضا ما أعطاهم الله تعالى من نعم غزيرة، لأنهم كانوا قبل ذلك في الدنيا يقومون بكل ما هو حسن، ويتركون كل ما هو قبيح، فقد أحسنوا أعمالهم، فاستحقوا الإحسان من الله تعالى، فضلا منه ونعمة.

وإيثار (آخذين) دون: قابلين، لإرادة الرضا مع القبول وقصد الرغبة فيما أعطاهم الله تعالى، وليس في قابلين إلا مجرد القبول وإيثار (محسنين) عن مؤمنين وغيره، لبيان أنهم قاموا بما كلفوا به، وزيادة بالتطوع بالنوافل، ولذا جوزوا بالإحسان إحساناً فزيد في عطاياهم والنعيم في الجنة، ﴿ هَلْ جَزَاءُ الْإِحْسَانِ إِلَّا

---

(١) التوبة / ١٠٤.

(٢) الكشاف للزمخشري ج ٤ / ١٥.

(٣) سورة البقرة / ١٧٨.

(٤) سورة آل عمران / ١٧٤، والمفردات للراغب / ١١٩.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

الْأَحْسَانُ ﴾ [1].

و(يهجعون) الهجوع: النوم الخفيف ليلاً، ويقال: أتيت فلاناً بعد هجعة خفيفة من الليل، يريد بعد نومة خفيفة.

و(ما) في (ما يهجعون) قيل هي زائدة، والتقدير: كانوا في قليل من الليل، فـ (قليلاً) ظرف، وهو في الأصل صفة.

ويمكن أن يكون التقدير: كانوا يهجعون هجوعاً قليلاً، وقليل هنا نعت لمصدر محذوف، أو (قليلاً).

وقيل: هي نافية، والتقدير: كانوا لا يهجعون من الليل قليلاً ويحيونه كله ورده بعضهم بحجة أن (ما) النافية لا يعمل ما بعدها فيما قبلها، لأن لها صدر الكلام، وليس فيها التصرف الذي في أخواتها كلا، وهو مذهب البصريين، وقد أجازه بعض النحاة مطلقاً، وبعضهم أضافه في الظرف خاصة للتوسع فيه.

وقيل: إن (ما) موصولة عائدها محذوف، فهي فاعل (قليلاً) وهو خبر (كانوا) و (من الليل) حال من الموصول، والتقدير: كانوا قد قل المقدار الذي يهجعون فيه كائناً ذلك المقدار من الليل.

ويجوز أن تكون مصدرية، والمصدر فاعل (قليلاً) وهو خبر (كانوا) و (من الليل) بيان لا متعلق بما بعده، إذ معمول المصدر لا يتقدم، أو حال من المصدر.

ولعل القول المناسب لكمال وإحكام النظم القرآني هو أن (ما) موصولة لإرادة بيان قلة مقدار ما ينامونه من الليل، إذ عدم النوم مطلقاً غير مراد، إذ لو كان المراد إحياء الليل كله لكان أولى الناس بهذا رسول الله ﷺ، فإنه ما قام ليلة حتى

---

(١) سورة الرحمن / ٦٠.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

الصباح.

ولا ريب أن قيام من نام من الليل نصفه أفضل إلى الله تعالى من قيام من قامه كله.

والمقصود أن هؤلاء المحسنين يكابدون العبادة في أوقات الراحة وسكون النفس، ولا يستريحون من مشاق النهار إلا قليلاً، بل أقل القليل، وذلك كله طلباً لرضا الله تعالى.

وإيثار لفظ (كانوا) لبيان استمرارية قيامهم بهذه النافلة التي هي دأب الصالحين المحسنين، إذ المداومة عليها قوت لهم وزاد، فلا يستطيعون تركها بحال، وتركها ولو يوماً واحداً موت لهم والمداومة على العمل الصالح وإن قل أفضل عند الله تعالى من الكثرة مع الانقطاع، وإيثار لفظ (يهجعون) وهو النومة القليلة، مع قوله (قليلاً) و (ما) لتأكيد الحالة التي هم عليها من القلة في النوم وتحقيق ذلك، باعتبار كون (ما) قيداً في الجملة، بقيد الوقت.

و(بالأسحار) السحر اختلاط ظلام آخر الليل بضياء النهار وقد جعل اسماً لذلك الوقت[1]، وهو السدس الأخير من الليل.

و(يستغفرون) الاستغفار طلب المغفرة، والغفران والمغفرة من الله تعالى، هو أن يصون العبد من أن يمسه العذاب، ومنه قوله تعالى ﴿ غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ﴾[2] وقوله ﴿وَمَغْفِرَةٌ مِنْ رَبِّهِمْ﴾[3] والاستغفار طلب ذلك بالمقال والفعال، كما

---

(١) المفردات / ٢٢٦.

(٢) سورة البقرة / ٢٨٥.

(٣) سورة القتال / ١٥.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

في قوله تعالى ﴿ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا ﴾ [1] والغفر الستر، ومنه الغفار، وهي خرقة تستر الخمار أن يمسه دهن الرأس. [2]

وقيل: (وبالأسحار هم يستغفرون) أي: يصلون[3] وهو طلبه بالقول والفعل، لأن السحر وقت لذلك.

فهم يعدون أنفسهم مع هذه الاجتهاد مذنبين ويسألون غفران الذنوب لوفور علمهم بالله تعالى، وأنهم لا يقدرون على أن يقدروه حق قدره، وإن اجتهدوا.

والإتيان بالضمير – هم – يدل على أن غيرهم لو فعل هذا ليلة لأعجب بنفسه، ورأى أنه لا أحد أفضل منه، وعلى أن استغفارهم في الكثرة يقتضي أنهم يكونوا بحيث يظن أنهم أحق بالتذلل من المصرين على المعاصي فاستغفارهم ذلك على بصيرة، لأنهم علموا أنه أهل لأن يطاع ويخشى. فهم المستغفرون الأحقاء بالاستغفار، فكأنهم المختصون به لاستدامتهم له وإطنابهم فيه.

(حق) هو النصيب الثابت، ففي أموالهم التي هي مال الله تعالى في الحقيقة وذلك من كل أصنافها نصيب ثابت أوجبوه على أنفسهم ولم يوجب عليهم ولذا لم يقل هنا كما قال في سورة سأل (معلوم) لأن السياق هنا سياق إحسان، فكان إحسانهم لفرط محبتهم إلى عباد الله لا يوقفهم عن الواجب، الذي أوجبوه على أنفسهم ولذا روي عن ابن عباس رضي الله عنهما قال في قوله تعالى (حق للسائل والمحروم): حق سوى الزكاة يصل بها رحماً أو يقري بها ضيفاً أو يعين بها محروماً[4].

---

(١) سورة نوح / ١٠.

(٢) المفردات للراغب / ٣٦٢.

(٣) تفسير غريب القرآن لابن قتيبة / ٤٢١.

(٤) الدر المنثور للسيوطي ج ٧ / ٦١٦.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

(للسائل) السائل: هو الذي يسأل المعونة بإظهاره حاجته إليها، وهو المتعفف.

و(المحروم) هو: المتعفف الذي لا يجد ما يغنيه، ولا يسأل الناس ولا يفطن له ليتصدق عليه، أو هو المتعفف[1] الذي لا يظهر فاقته بالسؤال أو هو الذي لا مال له لحرمان أصابه. فالمحسنون يعرفون صاحب هذا الوصف لما لهم من نافذ البصيرة ولله بهم من العناية.

• **معنى الآيات:**

إن المتقين الذين كانت التقوى لهم وصفاً ثابتاً، في بساتين عظيمة، والعيون الكثيرة محدقة بهم من كل ناحية، لا يبلغ كنهها ولا يقادر قدرها، قابلين لما أعطاهم الذي رباهم على صنوف نعمه، راضين به، فكل ما آتاهم حسن مرضي يتلقى بحسن القبول، إنهم كانوا كوناً راسخاً في الدنيا ودار العمل محسنين في معاملة الخالق والخلائق يعبدون الله كأنهم يرونه، فإن لم يكونوا رائين له، فهو سبحانه يراهم، فقد كانوا ينامون قليلاً من الليل، ويقطعون أكثر الليل بالسهر في الصلاة والتضرع والدعاء، وهم من قلة هجوعهم وكثرة تهجدهم يداومون على طلب المغفرة في الأسحار، فهم يعدون أنفسهم مع هذا الاجتهاد مذنبين، فيسألون غفران ذنوبهم لوفور علمهم بالله، وأنهم لا يقدرون على أن يقدروه حق قدره، وهم ينفقون من أموالهم نصيباً فرضوه على أنفسهم غير الزكاة، أعطوه للمستجدي والمتعفف الذي يحسبه الناس غنياً.

• **بعض ما يستفاد من الآيات:**

١ - التقوى سبب للنجاة والفلاح في الدنيا والآخرة، والثواب الجزيل في الجنة يوم القيامة.

---

(١) روي ذلك عن قتادة، الدر المنثور ج٧ / ٦١٧.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

٢ - الإحسان في معاملة الخلق والخلائق، بأن يعبد العبد ربه كأنه يراه والإحسان إلى الخلائق بتقديم المعروف إليهم تكميلاً لحقيقة الإحسان.

٣- الإكثار والمداومة على النوافل من العبادات وسيلة أكيدة للوصول إلى صفة الإحسان.

٤ - الفوز والظفر بالمطلوب لا يحصل إلا بعد نصب وعناء وصبر وجهاد، فمن طلب العلا سهر الليالي.

٥- معرفة الله تعالى، والعلم بما أعده للمتقين يجعل المؤمن عالماً حقيقة عمله، فيبعده ذلك عن العجب والغرور بعمله ويجعله في حالة مستمرة على التوبة والاستغفار.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

• قول الله تعالى ذكره:

﴿ وَفِي الأَرْضِ آيَاتٌ لِلْمُوقِنِينَ ۞ وَفِي أَنْفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ۞ وَفِي السَّمَاءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ ۞ فَوَرَبِّ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ إِنَّهُ لَحَقٌّ مِثْلَ مَا أَنَّكُمْ تَنْطِقُونَ ﴾

(آيات الله تعالى الكونية والأفقية دليل على حقيقة وعده ووعيده)

ولما ذكر سبحانه ما له من الأجرام العلوية التي هي آيات دالة على كمال عظمته، واستحقاقه للعبادة بغاية الخضوع رغباً ورهباً، ذكر سبحانه آياته الأرضية، لبيان كمال وجلال ملكه، وبديع خلقه.

قوله (آيات) جمع آية، والآية هي الدلالة العظيمة، وهي مع وضوحها بعد التأمل خفية، وقرئ آية على الإفراد[1]، ويراد بها الجنس.

(للموقنين) الموقن هو الذي نظر النظر الصحيح، وأداه ذلك إلى إيقان ما جاءت به الرسل، فأيقن إيقاناً لم يدخله ريب[2]. فصار الإيقان له غريزة ثابتة.

(تبصرون) البصر يقال للجارحة الناظرة، وللقوة التي فيها ويقال لقوة القلب المدركة بصيرة وبصر، وجمع البصر أبصار وجمع البصيرة بصائر.[3]

والاستفهام في قوله (أفلا) للتوبيخ والتقريع، والتعنيف، وتقديره: ألا تنظرون فلا تبصرون بعين البصر والبصيرة في الآيات الأرضية والنفسية فتتأملوا ما في ذلك وتتفكروا.

فالموقنون لا يزالون ينظرون في أمثال هذا بعيون باصرة وأفهام نافذة ففي

---

(١) البحر المحيط لأبى حيان ج ٨ ص١٣٦.

(٢) البحر المحيط لأبى حيان ج ٨ ص١٣٦.

(٣) المفردات للراغب / ٤٩.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

أنفسهم آيات، وذلك في حال ابتدائها، وتنقلها من حال إلى حال، وفي بواطنهما وظواهرها من عجائب الفطر وبدائع الخلق، ما تتحير فيه الأذهان.(١)

(وفي السماء) كل ما علاك فهو سماء، والمقصود هنا جهة العلو وهو السحاب الذي يحمل المطر المتسبب عنه الرزق، وهو الأقوات.

(رزقكم) الرزق يقال للعطاء الجارى تارة دنيوياً كان أم أخروياً وللنصيب تارة، ولما يصل إلى الجوف ويتغذى به(٢)، فكل عطاء، يعطى للعبد في الدنيا فهو رزق، وقد يكون مادياً حسياً، ويكون معنوياً. فيقال: رزقت علماً، ويجمع هذا قوله تعالى ﴿ وَأَنْفِقُوا مِنْ مَا رَزَقْنَاكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ أَحَدَكُمُ المَوْتُ ﴾(٣) وذلك الإنفاق من مال وجاه وعلم.

والمقصود بالرزق هنا المطر الذي به حياة الحيوان.

والفرق بين الرزق والكسب، هو أن الرزق عطاء، وقد يكون من غير كسب أما الكسب فهو رزق وعطاء لكنه بعمل، فكل كسب عطاء، إذ الرازق في كل هو الله تعالى، فهو المعطى بكسب وبغير كسب قال تعالى ﴿ أَنْفِقُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا كَسَبْتُمْ ﴾(٤) والواجب السعي والأخذ في الأسباب للكسب، وقد يحصل رزق وقد لا يحصل، ولذا

---

(١) الكشاف للزمخشري / ٤ / ١٦.

(٢) المفردات للراغب / ١٩٤.

(٣) سورة المنافقون / ١٠.

(٤) سورة البقرة / ٢٦٧.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

جاء في الحديث " أي الكسب أطيب، قال ﷺ : " عمل الرجل بيده "[1] وقرئ (وأرزاقكم)[2] على الجمع.

و(توعدون) عطف على (رزقكم) والتقدير: والذي توعدونه من خير وشر.

(لحق) من حق يحق إذا ثبت ووجب، فالذي ذكره سبحانه من الرزق والوعد والوعيد حق ثابت يطابقه الواقع، إذ قد جمع الحق مع الصدق.

والضمير في قوله (إنه) عائد على (ما) وعلى ما تقدم في أول السورة، فهو إما للحق أو لله تعالى، أو للنبي ﷺ أو للقرآن أو للدين في قوله (وإن الدين لواقع) أو لليوم المذكور في (أيان يوم الدين) أو أنه عائد على جميع ما ذكر، فكل ما ذكر قبل حق ثابت، من الله تعالى، من صدق الموعود ووقوع الجزاء.

و(إنه) جواب القسم، من قوله (فورب السماء والأرض) وهذا الضمير إشارة إلى ما ذكر من أمر الآيات والرزق وأمر النبي ﷺ، أو إلى ما توعدون، من الوعد والوعيد، وهو الأقرب للسياق.

و قد روى عن الأصمعي قال: أقبلت من جامع البصرة فطلع أعرابي على قعود له فقال: ممن الرجل ؟ قلت: من بنى أصمع قال: من أين أقبلت ؟ قلت: من موضع يتلى فيه كلام الله تعالى، فقال: اتل عليّ فتلوت: والذاريات...فلما بلغت قوله: وفي السماء رزقكم، قال: حسبك، فقام إلى ناقته فنحرها ووزعها على من أقبل وأدبر، وعمد إلى سيفه وقوسه فكسرهما وولى فلما حججت مع الرشيد، طفقت أطوف، فإذا أنا بمن يهتف بي بصوت دقيق فالتفت فإذا أنا بالأعرابي قد نحل واصفر، فسلم على واستقرا السورة فلما بلغت الآية صاح، وقال: قد وجدنا ما وعدنا ربنا حقاً ثم قال: وهل غير هذا فقرأت: فورب السماء والأرض إنه لحق - فصاح

---

(١) الحديث.

(٢) البحر المحيط لأبى حيان ج ٨ ص ١٣٦.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

وقال: يا سبحان الله من ذا الذي أغضب الجليل حتى حلف لم يصدقوه بقوله حتى ألجئوه إلى اليمين ثلاثاً وخرجت معها نفسه.[1]

وروى عن الحسن رضي الله عنه في قوله (فورب السماء والأرض) قال: بلغني أن رسول الله ﷺ قال: " قاتل الله أقواما أقسم لهم ربهم ثم لم يصدقوا "[2].

(مثل) المثل بكسر الميم وسكون الثاء كلمة تسوية، يقال: هذا مثله بالكسر والسكون، وهذا مثله بالفتح فيهما، كما يقال: شبهه وشبهه[3].

(تنطقون) النطق في التعارف هو الأصوات المقطعة التي يظهرها اللسان وتعيها الآذان، ومنه قوله تعالى: ﴿ مَا لَكُمْ لَا تَنْطِقُونَ ﴾[4] ولا يكاد يقال ناطق إلا للإنسان، ولا يقال لغيره إلا على سبيل التبع. ولذا يقال في الإنسان: هو الحي الناطق المائت، وقوله ﴿ عُلِّمْنَا مَنْطِقَ الطَّيْرِ ﴾[5] فقد سمى أصوات الطير نطقاً اعتباراً بسليمان الذي كان يفهمه[6]، وذلك بتعليم الله تعالى له، ولذا آثر التعبير بالنطق دون الكلام، لأنه أعم.

والمقصود أنه الرزق الذي في السماء، والوعد والوعيد حق ثابت مثل حقيقة وثبوت نطقكم أيها البشر، فكما أنه لاشك لكم في أنكم تنطقون ينبغي أن لا تشكوا في حقيقة ذلك الذي أخبركم به، وهو رزقكم الذي في السماء ووعده ووعيده.

وقرأ جمهور القراء (مثل) بالنصب، وهو منصوب على الحالية: من الضمير

---

(١) انظر تفسير الكشاف ج٤ / ١٧.

(٢) الدر المنثور، للإمام السيوطي ج ٧ / ٦١٩.

(٣) مختار الصحاح / ٦١٤.

(٤) سورة الصافات / ٩٢.

(٥) سورة النمل / ١٦.

(٦) المفردات للراغب / ٤٩٦، ٤٩٧.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

المستكن في قوله (لحق)، وقيل: حال من (لحق) وإن كان نكرة، فقد أجازه الجرمي وسيبوية[1]، ويجوز أن يكون منصوباً على الوصف لمصدر محذوف، وتقديره: إنه حق حقاً مثل نطقكم وقيل: إنه مبنى على الفتح، وذلك لتركبه مع (ما) فصار كل منهما كالشيء الواحد[2]، كما قيل: ويحما وابنما.

وقرئ (مثل) بالرفع صفة لقوله (لحق)[3] وإيثار (مثل ما أنكم تنطقون) عن: مثل ما تنطقون

لأنه أراد: مثل صحة كونكم ناطقين كاذبين أو صادقين. ولو كان الثاني لفهم منه: أنه حق مثل ما أن نطقكم حق ويكون في نطقهم غير حق.[4]

*معنى الآيات:

فكما أن له سبحانه في العلويات دلائل، له في الأرض دلائل عظيمة، من أنواع المعادن والنباتات والحيوانات، وفي نفسها من الدحو وارتفاع بعضها عن الماء، واختلاف أجزائها في الكيفيات والخواص، وغير ذلك كثير من الدلالات التي تكاد لا تحصى، في الدلالة على الصانع جل شأنه وعلمه وقدرته وإرادته وفرط رحمته، وذلك ظاهر جلي للذين سلكوا الطريق السوي الموصل إلى المعرفة، فهم قد نظروا إلى هذا الحق بعيون باصرة، وأفهام نافذة وكذلك في أنفسكم آيات ودلائل شاركتم بها الجماد، ثم فارقتموه بالنمو ثم الحس، ثم فارقتم الحيوان الخسيس بالعقل الموصل إلى بدائع العلوم ودقائق الفهوم، أعميتم عن هذه الدلائل العظيمة وغيرها في أنفسكم أفلا تبصرون بأبصاركم وبصائركم فتتأملوا ما في ذلك من الدلائل، إذ كل

---

(١) البحر المحيط لأبي حيان ج ٨ / ١٣٧.

(٢) روح المعاني للألوسي م ٩ج ٢٧، ص ١٠.

(٣) البحر المحيط لأبي حيان ج ٨ / ١٣٦.

(٤) وضح البرهان للغزنوي النيسابوري ج ٢ / ٣٣٠.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

ذلك دال على قدرة الصانع على كل ما يريد ويختار.

وكذلك آية عظيمة لكم في جهة السماء، وهو السحاب الذي يحمل المطر، فينزله الله تعالى في أي أرض شاء، فتخرج الأرض لكم الأرزاق التي تقتاتون بها، وكل ما هو نافع للعباد، وكذلك في جهة العلو وعده ووعيده، وهو أمره النازل من عنده تعالى فورب الأجرام العلوية والسفلية إن هذا الذي ذكره لكم من الرزق والوعد والوعيد حق ثابت يطابق الواقع، إذ هو الصدق الصرف مثل نطقكم، فإنه لا ينبغي أن يشك في ما أخبركم به، كما لا يشك في أنكم تنطقون في كل وقت نطقاً مجدداً مستمراً ليس هو بخيال ولا سحر.

• بعض ما يستفاد من الآيات:

١ - آيات في الأرض، من اختلاف في المعادن الكثيرة المتباينة مع اتحاد أصلها ونبات وحيوان وجماد وبر وبحر وغير ذلك مما يدل على كمال قدرة الله تعالى، وأنه الفاعل المختار، وأن وعده ووعيده حق لا ريب فيه.

٢ - خلق الله الإنسان بهذه الصورة العجيبة المتناسقة الجميلة المركب عليها فيها دلالة على كمال الإرادة التي أبدعت هذا الخلق، المستلزم منه الحمد والشكر على ما أبدع فيه.

٣- حتمية الرزق والوعد والوعيد، وأن الله قد خلق الخلق وأوجب على نفسه، ولم يوجب أحد عليه شيئاً أن يرزق ما خلق، وأن هذا حق، ووعده حق لا يشك فيه مثل أنه لا يشك في نطق الخلق.

٤ - حتمية وصدق البعث والنشور بعد الموت للجزاء والحساب، إذ الذي خلق هذا الخلق المحكم قادر على أن يعيد هذا الخلق مرة أخرى.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

* قول الله تعالى ذكره:

﴿ هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ ضَيْفِ إِبْرَاهِيمَ الْمُكْرَمِينَ ۞ إِذْ دَخَلُوا عَلَيْهِ فَقَالُوا سَلَامًا قَالَ سَلَامٌ قَوْمٌ مُنْكَرُونَ ۞ فَرَاغَ إِلَى أَهْلِهِ فَجَاءَ بِعِجْلٍ سَمِينٍ، فَقَرَّبَهُ إِلَيْهِمْ قَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ ۞ فَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً قَالُوا لَا تَخَفْ وَبَشَّرُوهُ بِغُلَامٍ عَلِيمٍ ۞ فَأَقْبَلَتِ امْرَأَتُهُ فِي صَرَّةٍ فَصَكَّتْ وَجْهَهَا وَقَالَتْ عَجُوزٌ عَقِيمٌ ۞ قَالُوا كَذَلِكَ قَالَ رَبُّكِ إِنَّهُ هُوَ الْحَكِيمُ الْعَلِيمُ ﴾.

(الكرام يبذلون من رزق الكريم المحسن على العالمين لإيقانهم بوعده ووعيده)

لما ذكر سبحانه أنه أودع في السماوات والأرض وما بينها أسباباً صالحة للإتيان بما وعد سبحانه من الخير وما توعد به من الشر وإن كان البشر لم يروا ذلك، فصار ذلك كالمشاهد، ولا وجه للتكذيب بوعد ولا وعيد، إذ قد دل عليه وصوره بما شوهد من أحوال الأمم، ذكر تلك الأمم، وبدأ بالمحسنين منهم، وبدأ برأس المحسنين إبراهيم عليه السلام وزوجه، وكيف كان إحسانه من رزق الله تعالى الذي أنعم به عليه، إذ كان يبذله في سبيله تعالى لإيقانه بأنه منه نعمة وفضلا، وكذلك إيقانه بوعد الله تعالى حين بشره الملائكة وزوجه بغلام عليم، بعد أن بلغ من الكبر عتياً. كما أخبروه بالوعيد الذي سينزل على قرى قوم لوط فاجتمع في هذه القصة بين الوعد والوعيد، ثم امتد ذكر الوعيد على بقية المكذبين.

(هل أتاك) هل: الاستفهام يطلب به التصديق فقط، ولكل أدوات الاستفهام يطب بها التصور فقط، إلا الهمزة فيطلب بها كل منهما.

ولا يكون المستفهم مع (هل) إلا فيما لا ظن له فيه البتة، بخلاف الهمزة فإنه لابد أنه يكون معه إثبات، فإذا قلت: أعندك زيد، فقد هجس في نفسك أنه عنده، فأردت أنه تستثنته، بخلاف (هل).

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

وقد ترد (هل) بمعنى: قد، وبه فسر قوله تعالى ﴿ هَلْ أَتَى عَلَى الْإِنسَانِ حِينٌ مِنَ الدَّهْرِ لَمْ يَكُنْ شَيْئًا مَذْكُورًا ﴾[1].

وقيل: إن (هل) هنا بمعنى قد[2]، والتقدير: قد أتاك حديث.

وذلك للتحقيق والتفخيم، تحقق حصول الحديث، وكأنه في حكم الذي وقع للنبي ﷺ معرفته له، وأن هذا الحديث في غاية الفخامة والعجب، فنبه عليه بهذه الصيغة، وفيه تقرير لتجتمع في نفس المخاطب.

(حديث) الحديث كل كلام يبلغ الإنسان من جهة السمع أو الوحي في يقظته أو منامه[3] ومنه

قوله تعالى: ﴿ وَإِذْ أَسَرَّ النَّبِيُّ إِلَى بَعْضِ أَزْوَاجِهِ حَدِيثًا ﴾[4] وهذا الحديث جاء عن طريق الوحي، إذ لم يكن للنبي ﷺ علم به.

(ضيف) أصل الضيف الميل، يقال: ضفت إلى كذا أو أضفت كذا إلى كذا والضيف من مال إليك نازلاً بك، وأصل الضيف مصدر، ولذا استوى فيه الواحد والجمع، وقد يجمع فيقال: أضياف وضيوف وضيفان[5].

المقصود بالضيوف هنا الملائكة، وسموا ضيفاً لأنهم كانوا في صورة الضيف ولأن إبراهيم عليه السلام حسبهم كذلك، وعبر عنهم بلفظ الواحد إشارة إلى اتحاد كلمتهم.

---

(١) سورة الإنسان / ١.

(٢) الجامع لأحكام القرآن للقرطبي م ٩ ج ١٧ ص ٤٧.

(٣) المفردات للراغب / ١١٠.

(٤) سورة التحريم / ٣.

(٥) المفردات للراغب / ٣٠٠.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

(المكرمين) الإكرام والتكريم أن يوصل إلى الإنسان إكرام على سبيل النفع، لا يلحقه فيه غضاضة أو أن يجعل ما يوصل إليه شيئاً كريماً شريفاً[1]، ومنه قوله تعالى (بل عباد مكرمون) فجعلهم كراما.

فـ (مكرمين) أكرمهم الله تعالى، وقيل: أكرمهم إبراهيم عليه السلام بأن خدمهم بنفسه[2] وقرئ (مكرمين) بالتشديد[3]، وفيه مبالغة.

(إذ) ظرف للزمان الماضي، معمول لـ (مكرمين) إذا كانت صفة حادثة بفعل إبراهيم عليه السلام أو أنه معمول بما في (ضيف) من معنى الفعل وتقديره: الذين ضافوه في وقت دخولهم عليه، أو معمول بإضمار: اذكر وقت دخلوا عليه، أو معمول بـ (حديث) تقديره: هل أتاك حديثهم الواقع وقت دخولهم عليه[4]، وهذا أقرب الأوجه وعبر بـ (عليهم) لبيان أن دخولهم دخول استعلاء مخالف لدخول بقية الضيوف.

(سلاماً) السلام هو التعري من الآفات الظاهرة والباطنة، ومنه قوله تعالى (إِذْ جَاءَ رَبَّهُ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ) وهو القلب المتعري من الدغل، وهذا في الباطن، وقوله (مسلمة لا شية فيها)، فهذا في الظاهر[5].

والسلامة الحقيقية ليست إلا في الجنة، إذ فيها بقاء بلا فناء وغنى بلا فقر،

---

(١) المفردات للراغب / ٤٢٩.

(٢) غرائب التفسير وعجائب التأويل، للشيخ محمود الكرماني م ٢ / ١١٤٢.

(٣) البحر المحيط لأبى حيان ج ٨ / ١٣٨.

(٤) حاشية الجمل ج ٤ / ٢٠٤.

(٥) المفردات للراغب / ٢٣٩.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

وعز بلا ذل، وصحة بلا سقم، قال تعالى: ﴿لَهُمْ دَارُ السَّلَامِ عِنْدَ رَبِّهِمْ﴾ (١).

و(سلاما) هنا مصدر، وهو منصوب لفعل محذوف، والتقدير: نسلم عليك سلاماً، و(سلاماً) من المصادر التي تسد مسد الفعل، وأنه يجب حذف فعله(٢).

و(قال سلام) وهو سلام إبراهيم عليهم، وهو يريد: عليكم سلام فسلام مبتدأ، وعليكم خبره.

وقد آثر الرفع بالابتداء في هذه القراءة لقصد الثبات والدوام، حتى يكون تحيته أحسن من تحيتهم، أخذاً بمزيد الأدب والإكرام، ولقوله تعالى ﴿وَإِذَا حُيِّيتُمْ بِتَحِيَّةٍ فَحَيُّوا بِأَحْسَنَ مِنْهَا أَوْ رُدُّوهَا﴾ (٣).

وقرئ (سلاما) بالنصب، و(قال سلماً) بكسر السين وسكون اللام(٤) والمعنى واحد.

(منكرون) الإنكار ضد العرفان، يقال: أنكرت كذا ونكرت وأصله أن يرد على القلب ما لا يتصوره، وذلك ضرب من الجهل(٥) ولذا فقد أنكرهم إبراهيم عليه السلام، وذلك للسلام الذي سلموا به، وهو علم للإسلام، أو لأن القوم الذين جاؤه وهم الملائكة، ليسوا ممن عهدهم من الناس، أو لأن أوضاعهم وأشكالهم خلاف ما عليه الناس، و(قوم) خبر لمبتدأ محذوف، وتقديره: أنتم قوم منكرون ولعل هذا الإنكار منه كان في نفسه، من غير أن يشعرهم بذلك لا أنه خاطبهم به جهراً، وقد قيل: إنه سألهم

---

(١) الأنعام / ١٢٧.

(٢) البحر المحيط لأبي حيان ج ٨ / ١٣٨.

(٣) النساء / ٨٦.

(٤) البحر المحيط لأبي حيان ج ٨ / ١٣٩.

(٥) المفردات للراغب / ٥٠٥.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

أن يعرفوه أنفسهم وإلا لكشفوا أحوالهم عند ذلك، ولم يقصد عليه السلام لمقدمات الضيافة ولا مانع من أن يكون الإنكار لكل ما ذكر، ولعل هذا الإنكار وقع حين قدم لهم الطعام فلم يأكلوا، وذلك في سورة هود قال تعالى ﴿ فَلَمَّا رَأَى أَيْدِيَهُمْ لَا تَصِلُ إِلَيْهِ نَكِرَهُمْ وَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً ﴾[1]. ولعل الإنكار منهم وقع منه عليه السلام مرتين، الأولى إنكار وقع منه لهم لعدم العلم بهم، وكان ذلك في نفسه، وإنكار وقع بعد تقديم الطعام، لعدم العلم بأنهم دخلوا عليه لقصد الخير أو الشر، فإن من امتنع من تناول الطعام يخاف من شره[2].

(فراغ) الروغ والروغان الميل على سبيل الاحتيال، ومنه راغ الثعلب يروغ روغاناً، وطريق رائغ إذا لم يكن مستقيما، كأنه يراوغ[3].

والمقصود أنه ذهب خفية من ضيفه، فصورته صورة احتيال وهو إيهام غيره بشيء، وهو يفعل شيئا آخر، وهو حسن أدب مع الضيف، حيث لا يشعره بحرج ولا تكلف، أو يكدر عليهم الانتظار.

(بعجل) العجل ولد البقرة، كأنه سمى بذلك لتصور عجلته التي تعدم منه إذا صار ثوراً.

(سمين) السمين هو الممتلئ الجسد بالشحم واللحم، يقال: سمن سمانة وسمناً فهو سامن وسمين.

والمقصود أنه قد جاءهم بأعظم اللحم وأسمنه، وقد شواه وأنضجه، وذلك في غاية السرعة من غير أن يشعرهم بذلك العمل كله.

---

(١) هود / ٧٠.

(٢) حاشية الجمل ج ٤ / ٢٠٤.

(٣) المفردات للراغب / ٢٠٨.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

(ألا تأكلون) الهمزة في (ألا) للاستفهام الإنكاري فهو ينكر عليهم عدم أكلهم، أو أن (ألا) للعرض، فهو يعرض عليهم أن يأكلوا، أو للتحضيض، فهو يحضهم على أن يأكلوا وهو من حسن الضيافة، أن يعرض المضيف على أضيافه الطعام ويحض على أن يأكلوا، إذ في ذلك سماحة وإباحة لهم بالأكل.

(فأوجس) الوجس الصوت الخفي، والتوجس التسمع والإيجاس وجود ذلك في النفس، فالوجس حالة تحصل من النفس بعد الهاجس، لأن الهاجس مبتدأ التفكير، ثم يكون الواجس الخاطر.(١)

والمقصود أنه أضمر عليه السلام في نفسه منهم خوفاً لما رأى إعراضهم عن الطعام، وظن أن ذلك لشر يريدونه، فإن أكل الضيف أمنة، والامتناع عنه وحشة موجبة لظن الشر.

والفاء في (فأوجس) معطوف على مقدر، والتقدير: لم يجيبوا قوله فأوجس منهم خوفاً، فلما رأوا أمارة الخوف في وجهه الشريف، قالوا: لا تخف وأعلموه أنهم رسل ربه.

(وبشروه) يقال: أبشرته وبشرته أخبرته بسار بسط بشرة وجهه، وذلك أن النفس إذا سرت انتشر الدم فيها انتشار الماء في الشجر وبشرته عام، وأبشرته وبشرته على التكثير.(٢)

والمقصود أن الملائكة الذين جاءوا إبراهيم عليه السلام في هيئة أضياف بشروه بخبر سار، هو أن يولد له غلام ذو علم كثير وهو إسحاق عليه السلام، وقيل: عليم نبي.

---

(١) المفردات للراغب / ٥١٢.

(٢) المفردات للراغب / ٤٨.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

(فأقبلت) أقبل ضد أدبر، يقال: أقبل مقبلاً، مثل أدخلني مدخل صدق، وأقبل عليه بوجهه، والمقابلة المواجهة. [1]

(في صرة) الصرة الجماعة المنضم بعضهم إلى بعض، كأنهم صروا أي: جمعوا في وعاء، وقيل: الصرة الصيحة[2]، أو الرنة، أو التأوه بصياح وتعجب، وجملة الجار والمجرور محلها النصب على الحالية، وعبر بالظرف في صرة، لأنها قد امتلأت عجباً.

(فصكت) يقال: صكحه ضربه، وبابه رد، وصكت وجهها لطمته، ولذلك كما يفعله من يرد عليه أمر يستهوله ويتعجب منه، وهو فعل النساء إذا تعجبن من شيء، وقيل: ضربت بكفها جبهتها، وهذا مستعمل في الناس حتى الآن[3]، وقيل: جمعت أصابعها وضربت جبهتها[4]، فعل المتعجب.

(عقيم) أصل العقم اليبس المانع من قبول الأثر، يقال: عقمت مقاصله يبست، والعقيم من النساء التي لا تقبل ماء الفحل يقال: عقمت المرأة والرحم، وريح عقيم هي التي لا تلقح سحاباً ولا شجراً، ويوم عقيم لا فرح فيه[5].

والمقصود أنه لما سمعت امرأة إبراهيم عليه السلام، وهي سارة ما قالته الملائكة من البشرى، أخذت مقابلة لهم واضعة أصابعها على وجهها تعجباً قائلة أنا عجوز، وذلك مانع من الولادة وعقيم فلم ألد قط، فكيف ألد.

---

(١) مختار الصحاح للرازي / ٥٢٠.

(٢) المفردات للراغب / ٢٧٩.

(٣) البحر المحيط لأبي حيان ج ٨ / ١٤٠.

(٤) غرائب التفسير، للشيخ محمود الكرماني ح ٢ / ١١٤٣.

(٥) المفردات للراغب / ٣٤٢.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

و(عجوز عقيم) خبر لمبتدأ محذوف، وتقديره: أنا عجوز عقيم وقالت ذلك تريد أن تستبين الأمور، هل الولد منها أم من غيرها.

وجمعت بين: عجوز، وعقيم، لأنها في حال شبابها لم تكن تقبل الحبل.

ولذا جاء في موضع آخر قولها ﴿ قَالَتْ يَا وَيْلَتَى أَأَلِدُ وَأَنَا عَجُوزٌ وَهَذَا بَعْلِي شَيْخًا إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عَجِيبٌ ﴾(١)

• معنى الآيات:

لقد جاءك يا أكمل الخلق حديث ضيوف إبراهيم عليه السلام خليل الله تعالى، وهم ملائكة الله الكرام، جاءوا في صورة أضياف وكان حديثهم وقت دخولهم عليه أن سلموا عليه، فرد عليهم السلام بأحسن من تحيتهم، غير أنه أنكرهم في نفسه لما رأي من حالهم وقد ذهب في خفية عليه السلام إلى أهله لإحضار الطعام فجاء بعجل، وهو فتي من أولاد البقر، وكان سميناً قد شواه وأنضجه حتى يسهل أكله، وهو من آداب الضيافة، فقرب إليهم الطعام لعدم الكلفة عليهم، فلما قدمه لم يأكلوا وامتنعوا، فأنكر عليهم وحثهم على أن يأكلوا، فاضمر في نفسه عليه السلام خوفاً من عدم أكلهم، فقالوا له مؤنسين: لا تخف وأعلموه بأنهم رسل الله تعالى وقد أخبروه بعد أن أنس بخبر سار هو أن يولد له غلام على شيخوخته ويأس امرأته بالطعن في السن بعد عقمها، وهذا الغلام وصفه أنه كثير العلم، ولا يموت حتى يظهر علمه بالفعل في أوانه، وهو إسحاق عليه السلام.

فلما سمعت زوجه سارة ما قالته الملائكة لإبراهيم عليه السلام جاءته في جلبة بصرير فضربت بأصابع يديها على وجهها تعجباً، وهي حالة النساء وعادتهن حين يسمعن بأمر عجيب، وقالت من شدة عجبها أنا عجوز، وهو وصف مانع من

(١) هود / ٧٢.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

الولادة، وعقيم لم أقبل الحبل في وقت الشباب قالت الملائكة: مثل ذلك القول الذي أخبرناك به قال ربك ذلك قبل، وهو القادر على إيجاد ما يستبعد، إذ لا يستعصى على قدرته شيء، فهو وحده الحكيم الذي يضع الأشياء في أحق مواضعها، العليم المحيط العلم، الذي أحاط بكل شيء علماً.

* **بعض ما يستفاد من الآيات:**

١ - من رحمة الله تعالى أن يسلى ويسرى نبيه ﷺ وأتباعه المؤمنين بذكر قصص من كانوا قبلهم حتى لا يصابوا بالحزن لما يرون من المعاندين المكابرين المكذبين للحق، مع بيانه.

٢ - ذكر قصص الأمم قبل، فيه بشارة بإكرام المصدق بالحق العامل به، وإهانة للمكذب له الصاد عنه، وهو حقيقة الوعد والوعيد.

٣- من صفات الكرام إكرام الضيف بأحسن ما لديك وأن يحسن استقباله وعدم إشعاره بما تقوم به له من ضيافة.

٤ - من آداب الضيافة محادثة الضيف أثناء الطعام وأن يؤتى بالطعام في مكان جلوسه، حتى لا يستوحش أو يخجل من أن يأكل، أو يتكلف بالقيام لمكان آخر.

٥ - من الأدلة على صدق الوعد خرق العادة، كما أخبر إبراهيم عليه السلام بالولد وهو في سن متأخر، تقتضى العادة هو وزوجه عدم الإنجاب.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

* قول الله تعالى ذكره:

﴿ قَالَ فَمَا خَطْبُكُمْ أَيُّهَا الْمُرْسَلُونَ ۞ قَالُوا إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَى قَوْمٍ مُجْرِمِينَ ۞ لِنُرْسِلَ عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِنْ طِينٍ ۞ مُسَوَّمَةً عِنْدَ رَبِّكَ لِلْمُسْرِفِينَ ۞ فَأَخْرَجْنَا مَنْ كَانَ فِيهَا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ۞ فَمَا وَجَدْنَا فِيهَا غَيْرَ بَيْتٍ مِنَ الْمُسْلِمِينَ ۞ وَتَرَكْنَا فِيهَا آيَةً لِلَّذِينَ يَخَافُونَ الْعَذَابَ الْأَلِيمَ ﴾

(مآل المسرفين المكذبين بالوعد والوعيد)

لما ذكر سبحانه المؤمنين بالوعد والوعيد، وإيقانهم برزقه الكريم، فأوقعوا الكرم لعباده من رزقه، ولم يبخلوا به، لثقتهم في حتمية رزقه المستمر، ذكر المكذبين لوعده ووعيده الناكرين لنعمه الجاحدين لها، الذين يبخلون بها على خلقه، حتى ولو استضيفوا لديهم، وبدل أن يكرموهم بحق الضيافة أرادوا الإساءة إليهم.

قوله (فما خطبكم) الخطب بسكون الطاء، هو سبب الأمر العظيم الذي يكثر فيه التخاطب.[1]

والمعنى: ما السبب والشأن الخطير الذي لأجله أرسلتم سوى البشارة أيها المرسلون وعبر بالخطب دون الخبر والشأن، لبيان عظم الأمر الذي أرسلوا من أجله.

(مجرمين) الجرم والجريمة الذنب، تقول: جرم وأجرم واجترم[2] وأجرم صار ذا جرم، وهو وصف يقال لكل اكتساب مكروه ومنه قوله تعالى:﴿ إِنَّ الَّذِينَ أَجْرَمُوا كَانُوا مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا يَضْحَكُونَ﴾[3]

---

(١) المفردات للراغب / ١٥٠.

(٢) مختار الصحاح / ١٠٠.

(٣) المطففين / ٢٩.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

والمقصود أن الملائكة المرسلين بالأمر العظيم قالوا قاطعين بالتأكيد، بأن مضمون خبرهم الذي جاءوا من أجله حتم لا بد منه، ولا مدخل للشفاعة فيه، بأنهم أرسلوا إلى قوم هم في غاية القوة على ما يحولونه، وقد صرفوا ما أنعم الله به عليهم من القوة في قطع ما يحق وصله، ووصل ما يحق قطعه وهم قوم لوط، فقد وقعوا في الجرائم وكبار المعاصي من كفر وغيره.

وتصدير جواب الرسل بالتأكيد لبيان أن أمر هؤلاء مقطوع به، وهو أخذهم بالعذاب، دفعاً لما يمكن من إبراهيم الأواه الحليم أن يشفع فيهم، أو يطلب تأخير العذاب عنهم، ولاستمرارية دعوتهم ولوجود ابن أخيه لوط عليه السلام فيهم، كما ذكر ذلك في موضع آخر ﴿قَالَ إِنَّ فِيهَا لُوطًا قَالُوا نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَنْ فِيهَا لَنُنَجِّيَنَّهُ وَأَهْلَهُ إِلَّا امْرَأَتَهُ كَانَتْ مِنَ الْغَابِرِينَ﴾ (١)

(حجارة من طين) هي حجارة الآجر، وهو السجيل، طين يطبخ بالنار، كما يطبخ الآجر حتى يصير في صلابة الحجارة، فهو طين متحجر.

والمقصود أن الملائكة المرسلين سيرسلون عليهم من فوقهم من السماء التي فيها ما وعد العباد به وتوعدوا حجارة من طين مطبوخ منضود، وهو مهيأ للاحتراق والإحراق.

وإيثار الحجارة المرسلة من طين مطبوخ، لخاصية هذا النوع من الحجارة في شدة الإحماء واستمرارية الاحتراق، وعدم التناثر أو التكسر إن أرسلت من بعد، ولجنس العمل الذي كانوا يقومون به، في مخالفته الفطرة، وليعلم أنها ليست حجارة الماء التي هي البرد.

---

(١) العنكبوت / ٢٩.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

(مسومة) السوم بالضم العلامة، ومنه قوله تعالى ﴿ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ ﴾[1] وهي المعلمة، وقوله ﴿ مسومين ﴾[2] معلمين.

فـ (مسومة) هنا معلمة، وقيل: معروفة بأنها حجارة العذاب وقيل: على كل حجر اسم من يهلك، وقيل: عليها أمثال الخواتيم[3] وقيل: معلمة أنها ليست من حجارة الدنيا[4]، وقيل: معلمة بعلامة العذاب المخصوص.

و(مسومة) منصوب على أنه نعت لـ (حجارة) وقيل: إنه حال من الضمير المستكن في الجار قبله، وقيل: إنه حال من (حجارة) وحسن ذلك كون النكرة وصف بالجار بعدها[5].

(للمسرفين) السرف تجاوز الحد في كل فعل يفعله الإنسان وإن كان ذلك في الإنفاق أشهر، ومنه قوله تعالى ﴿ وَالَّذِينَ إِذَا أَنْفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَلِكَ قَوَامًا ﴾[6].

و يقال أسرف تارة اعتباراً بالقدر، وتارة بالكيفية، ولهذا قال سفيان: ما أنفقت في غير طاعة الله فهو سرف، وان كان قليلاً، ولذا قال تعالى على سبيل العموم ﴿ وَلَا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ ﴾[7].

---

(١) آل عمران / ١٤.

(٢) آل عمران / ١٢٥.

(٣) الجامع لأحكام القرآن للقرطبي م ٩ / ١٧ / ٥٠.

(٤) البحر المحيط لأبي حيان ح ٨ / ١٤٠.

(٥) حاشية الجمل م ٤ / ٢٠٥.

(٦) الفرقان / ٧٦.

(٧) الأعراف / ٣١.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

فالمسرفون هنا المتجاوزون للحد في الفجور، الذين لم يقنعوا بما أبيح لهم.

و(للمسرفين) متعلق بـ (مسومة)، و(عند ربك) ظرف لـ (مسومة) وقد وضع الظاهر الذي هو (للمسرفين) موضع الضمير، إذ التقدير: مسومة عند ربك لهم، ولكنه عدل إلى ما ذكر، ذماً لهم بالإسراف بعد ذمهم بالإجرام، وبياناً لعلة الحكم.

(من المؤمنين) الإيمان التصديق، والله تعالى المؤمن، لأنه آمن عباده من أن يظلمهم، ومنه قوله تعالى ﴿ وَمَا أَنتَ بِمُؤْمِنٍ لَنَا وَلَوْ كُنَّا صَادِقِينَ﴾ [1] والتصديق يكون باجتماع ثلاثة أشياء: تحقق بالقلب وإقرار باللسان، وعمل بحسب ذلك بالجوارح[2]، وليس المقصود بالإيمان مجرد التصديق، بل مجموع هذه الأمور الثلاثة.

(من المسلمين) الإسلام الدخول في السلم، وهو أن يسلم وجهه لله تعالى بحيث لا يوجه وجهه

لغيره، فيستسلم له بالتوحيد وهو الاعتراف باللسان وبه يحقن الدم، وهو بهذا دون الإيمان.

ولذا جاء في الحديث (الإيمان في القلب، والإسلام علانية)[3] وهذا في بيان كل واحد منهما على حدة، لأنهما إذا اجتمعا كما هو هنا افترقا، وإن افترقا اجتمعا، فإذا قيل: مؤمن فهو مسلم وإذا قيل: مسلم فهو مؤمن، أما إذا قيل: مؤمن مسلم فيعرف كل منهما كما ذكر آنفاً.

---

(١) يوسف / ١٧.

(٢) المفردات للراغب / ٢٦.

(٣) الحديث.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

ولذا قيل: وصفهم الله تعالى بالإيمان والإسلام جميعا، لأنه ما آمن مؤمن إلا وهو مسلم[1].

وذلك لما بينهما من التلازم وإن اختلف المفهومان، وقدم الإيمان على الإسلام، لأن الإيمان أخص من جهة معناه، وهو أعلى رتبة، كما أن الإحسان أعلى منهما.

وإن كانت الآية تدل على اتحاد الإيمان والإسلام للاستثناء المعنوي والمعنى: فأخرجنا من كان فيها من المؤمنين فلم يكن المخرج إلا أهل بيت واحد من المسلمين، وأن صاحب الوصفين محفوظ من كان وأين كان[2].

والمقصود. فما وجد ملائكتنا في هذه القرى غير بيت من المسلمين. وقد بين ابن قيم الجوزية سر التغاير بين الإيمان والإسلام هنا فقال: ففرق بين الإسلام والإيمان هنا لسر اقتضاه الكلام، فإن الإخراج هنا عبارة عن النجاة فهو إخراج نجاة من العذاب، ولا ريب أن هذا مختص بالمؤمنين المتبعين للرسل ظاهراً وباطناً وقوله (فما وجدنا فيها غير بيت من المسلمين) لما كان الموجودون من المخرجين أوقع اسم الإسلام عليهم، لأن امرأة لوط كانت من أهل هذا البيت وهي مسلمة في الظاهر، فكانت في البيت الموجودين، لا في القوم الناجين.

وقد أخبر سبحانه عن خيانة امرأة لوط، وخيانتها أنها كانت تدل قومها على أضيافه وقلبها معهم وليست خيانة فاحشة فكانت من أهل البيت المسلمين ظاهراً، وليست من المؤمنين الناجين.

قال: وقد وضع دلالة القرآن وألفاظه مواضعها تبين له من أسراره وحكمه

---

(١) تفسير البغوي.

(٢) روح المعاني للألوسي م ٩ج ٢٧ ص ١٤.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

ما يبهر العقول ويعلم أنه تنزيل من حكيم حميد.

وبهذا خرج الجواب عن السؤال المشهور وهو: إن الإسلام أعم من الايمان فكيف استثنى الأعم من

الأخص، وقاعدة الاستثناء تقتضى العكس، وتبين أن المسلمين المستثنين مما وقع عليه فعل الوجود، والمؤمنين غير مستثنين منه، بل هم المخرجون الناجون[1].

(آية) الآية مشتقة من التأيي الذي هو التثبت والإقامة على الشيء، وهي العلامة الظاهرة، وحقيقته لكل شيء ظاهر، وهو ملازم لشيء لا يظهر ظهوره[2].

والمقصود: أنه قد ترك في قراهم علامة دالة على ما أصابهم من العذاب قيل: هي أحجار كثيرة منضودة، التي رجموا بها، وقيل: ماء أسود منتن قال الشهاب. كأنه بحيرة طبرية[3].

وهذه الآية التي تركت في قراهم للذين يعتبرون بها، فيخافون أن يحل بهم كما حل بهذه القرى التي أصبحت خربة، بسبب العذاب المؤلم الذي نزل بها.

وجاء التعبير بقوله (وتركنا فيها) إشارة إلى تلك القرى التي أوقع بها من العذاب الذي كان مبدؤه أنسب شيء بفعل الذاريات من السحاب فإنه قد قلعت قراهم كلها وصعد بها في الجو كالغمام إلى عنان السماء، ولم يشعر أحد من أهلها بشيء من ذلك ثم قلبت القرى وأتبعت بالحجارة ثم خسف بها وغمرت بالماء الذي لا يشبه شيئا من مياه الأرض، كما أن خباثتهم لم تشبه خباثة أحد ممن تقدمهم من أهل الأرض، فكانت آية عذابهم أشبه بما ذكر في أول السورة من الذاريات، ولذا كان بدأ

---

(١) الضوء المنير على التفسير، جمعه على الحمد / ٥ / ٤٧٢.

(٢) المفردات للراغب / ٣٣.

(٣) حاشية الشهاب ج ٨ / ٩٨.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

قصص الأقوام الذين عذبوا بها.

فآيات الله تعالى وعجائبه التي فعلها في هذا العالم، وأبقى آثارها دالة عليه وعلى صدق رسله وينتفع بها من يؤمن بالمعاد، ويخشى عذابه تعالى، ولذا قال في موضع آخر ﴿ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِمَنْ خَافَ عَذَابَ الْآخِرَةِ ﴾(١)

ولذا جاء التعبير بلفظ (في) لأنه أراد الناحية والبقعة فالناحية والبقعة باقية، وأما المدائن والقرى فقد ذهبت، ولذا جاء في الآيـــة الأخـــرى (منهـــا) لبيـــان أن الحجارة إلى أبقاها الله تعالى، قد أدركتها أوائل هذه الأمة(٢).

* معنى الآيات:

قال إبراهيم عليه السلام للملائكة الذين جاءوا إليه وبشروه بالولد الذي سيولد له بعد هذا السن:

ما هو الخبر العظيم الذي جئتم من أجله أيها المرســـلون، قـــالوا قـــاطعين بالتأكيد، بأن مضمون خبرهم حتم لا بد منه، ولا مدخل للشفاعة فيـــه، وهـــو أنهـــم أرسلوا بأمر الله تعالى إلى قوم لوط العريقين في غاية الإجرام لكي يرسلوا علـــيهم حجارة من السماء التي فيها ما وعدوا به، تلك الحجارة خاصة بكل من فعل فعلهـــم، فهي معلمة بعلامة العذاب الخاص بهم، وهي عند ربك الذي أحسن إليك وإليهم وإلى جميع الخلق بصنوف نعمه وإحسانه، لكل من تجاوز الحد من غير أن يقنع بما أبيح له من الحلال، وقد نجى الله تعالى لوطاً من كل هذا العذاب، إذ لم يكن غير بيته من المؤمنين، فنجاه الله تعالى بعظمته وكمال وقدرته ومن آمن معه، وترك فـــي تلـــك القرى التي خالفت أمر الله تعالى دلالة تدل كل من يخاف العذاب المؤلم، أن يحل به،

---

(١) هود / ١٠٣.

(٢) تفسير الرازي المسمى أنموذج جليل في أسلة وأجوبة من غرائب آي التنزيل / ٤٨٠.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

كما حل بهذه القرى في الدنيا، وما ادخر لهم في الآخرة أعظم.

إذ الذين يخافون مثل هذا العذاب هم الذين من شأنهم سلامة فطرتهم ورقة قلوبهم دون من عداهم من ذوى القلوب القاسية فإنهم لا يعتدون بها، ولا يعدونها آية.

- **بعض ما يستفاد من الآيات:**

١- الملائكة تنزل بأمر الله تعالى، وذلك لخطب عظيم من خير أو شر.

٢ - نزول العذاب على من أراد الله تعالى نزوله، لا يكون إلا إذا كثر الخبث الذي لا يمكن الإصلاح معه، فلا بد من عذاب الاستئصال لبناء مجتمع جديد.

٣- إن الله تعالى برحمته ينجي عباده المؤمنين من العذاب الذي ينزله على المنكرين لوعده ووعيده.

٤ - الإيمان والإسلام متلازمان للعبد، فالإيمان في القلب، والإسلام علانية، وإن كان الإيمان أعلى رتبة، وأعلى منهما الإحسان.

٥- استبقاء بعض العلامات الدالة على عذاب الاستئصال للمجرمين، لتهديد وتخويف غيرهم وللدلالة على كمال قدرته سبحانه.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

(بسلطان) أصله من السلاطة وهو التمكن من القهر، يقال: سلطت فتسلط، قال تعالى: ﴿وَلَوْ شَاءَ اللهُ لَسَلَّطَهُمْ عَلَيْكُمْ ﴾[1]

ومنه قوله تعالى: ﴿ وَمَنْ قُتِلَ مَظْلُومًا فَقَدْ جَعَلْنَا لِوَلِيِّهِ سُلْطَانًا﴾[2] يريد سلاطة وقهراً.

وتسمى الحجة سلطانا، وذلك لما يلحق من الهجوم على القلوب[3] والقهر، ومنه قوله تعالى: ﴿فَأْتُونَا بِسُلْطَانٍ مُبِينٍ﴾[4]

فالسلطان القهر والتمكين ظاهراً، والسلطان الحجة لقهرها القلوب والمقصود بالسلطان هنا هو ما ظهر على يدي موسى عليه السلام من المعجزات الباهرة، فهي تقهر القلوب على الإذعان بها.

(مبين) من بان واستبان وتبين وقد بينته فبان، ومنه قوله تعالى: ﴿ وَقَدْ تَبَيَّنَ لَكُمْ مِنْ مَسَاكِنِهِمْ ﴾[5] وقوله: ﴿ وَلِتَسْتَبِينَ سَبِيلُ الْمُجْرِمِينَ﴾ [6] ويكون من: أبان يبين إذا بين لغيره، وبان بين في نفسه، والآيات المعجزات التي جاء بها موسى عليه السلام فرعون وقومه، بينة في نفسها ومبينة لغيرها أنها الحق.

فـ (مبين) بان أو أبان اللازم أو المتعدي، ومفعوله على كونه متعديا محذوف، تقديره: أبان ما يجب أن يحذر عنه أو ينذر منه.

---

(١) النساء / ٩٠.

(٢) الإسراء / ٣٣.

(٣) المفردات للراغب / ٢٣٨.

(٤) إبراهيم / ١٠.

(٥) سورة العنكبوت / ٣٨.

(٦) الأنعام / ٥٥.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

وقوله (وفى موسى) معطوف على قوله (وتركنا فيها آيـة) والتقـدير: وجعلنا في موسى آية وقت أرسلناه إلى فرعون بالمعجزات الظاهرة في نفسها فهي مادية من شدة ظهورها بأنها معجزة، ففيها دلالة واضحة على صدق وعيده سبحانه، ومع ذلك لم ينفعهم علمها.

وقيل: معطوف على قول (وفى الأرض آيات) والأول أقـرب مـن غيـره وأولى وقيل: (في موسى) خبر لمبتدأ محذوف، وتقديره: وفى موسـى آيـة[1].و(إذ) ظرف للعامل المقدر، أو المفعول المقدر وهو: آية[2].

و (بسلطان) الجار والمجرور حال من الضمير فـي (أرسـلناه) وتقـديره: أرسلناه حال كونه متلبساً بسلطان مبين واضح، وهو الآيات التسع.

(فتولى) الفاء سببية، وتولى إذا عدى بـ (عن) لفظاً وتقـديراً اقتـضى معنى الإعراض، وترك قربه[3]، فمن الأول قوله تعالى: ﴿ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِـنْكُمْ فَإِنَّـهُ مِنْهُمْ ﴾[4] ومن الثاني المقدر فيه (عن) قوله تعالى ﴿ فَـإِنْ تَوَلَّـوْا فَـإِنَّ اللهَ عَلِـيمٌ بِالمُفْسِدِينَ ﴾[5]

والذي هنا من الثاني، والتقدير: فتولى بأن أعرض عن موسى وما جاء بـه من الحق بالوعد والوعيد، بسبب ما يركن إليه من القوة.

(بركنه) ركن الشيء جانبه الذي يسكن إليه، وقد يراد به القوة، ومنه قوله

---

(١) روح المعاني للألوسي م ٩ج ٢٧ص ١٥.

(٢) حاشية الجمل ج ٤ / ٢٦٠.

(٣) المفردات للراغب / ٥٣٤.

(٤) المائدة / ٥١.

(٥) آل عمران / ٦٣.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

تعالى ﴿ قَالَ لَوْ أَنَّ لِي بِكُمْ قُوَّةً أَوْ آوِي إِلَى رُكْنٍ شَدِيدٍ﴾[1]، والباء في (بركنه) للتعدية، فقد تولى بقومه على أن الركن بمعنى القوم، لأنه يركن إليهم ويتقوى بهم، وقيل: تولى بقوته وسلطانه، والباء للملابسة وهو أوجه من السببية وقرئ بضم القاف (بركنه) وذلك اتباعاً للراء.[2]

(ساحر) السحر الأُخْذَةُ وكل ما لطف مأخذه ودق فهو سحر ومادة سحر[3] تعطي معان منها الخداع، ومنها التخيلات التي لا حقيقة لها، نحو ما يفعله المشعوذ بصرف الأبصار عما يفعله لخفة يده وما يفعله النمام بقول مزخرف عائق للأسماع، ومنه قوله تعالى ﴿ سَحَرُوا أَعْيُنَ النَّاسِ وَاسْتَرْهَبُوهُمْ ﴾[4]، فالسحر أنواع كثيرة ومنه ما يدق ويلطف[5].

وأياً ما كان فإن اللعين جعل ما ظهر على يدي موسى عليه السلام من الخوارق العجيبة منسوبة إلى الجن، وتردد في أنه حصل باختياره فيكون سحراً، أو بغير اختياره فيكون جنوناً.

إذ الجنون زوال العقل، وهذا مبنى على زعم فرعون الفاسد إذ السحر ليس من الجن. و(ساحر) خبر لمبتدأ محذوف، تقديره: هو ساحر.

و(أو) أصلها للشك، وهو التردد بين شيئين دون ترجيح أحدهما، وقيل: هي

---

(١) هود / ٨٠.

(٢) روح المعاني للألوسي م ٩ج ٢٧ص ١٥.

(٣) مختار الصحاح / ٢٨٨.

(٤) الأعراف / ١١٦.

(٥) المفردات للراغب / ١٢.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

بمعنى الواو، إذ قد ذكر الأمرين في قوله تعالى ﴿ إِنَّ هَذَا لَسَاحِرٌ عَلِيمٌ ﴾[1] وقال ﴿إِنَّ رَسُولَكُمُ الَّذِي أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ ﴾[2] وقيل: هي للإبهام، وهو أن يوهم السامع عدم علمه بصفة المذكور ليعمى على قومه، إذ كان اللعين يتلون تلون الحرباء، لأنه على علم بموسى عليه السلام، إذ قد تربى في بيته.

فهي للشك والإبهام على السامع حتى يوقعه في الحيرة، وعدم الإلتفات إلى الرسول المرسل إليهم.

(فأخذناه) الأخذ حوز الشيء وتحصيله، وتارةً يكون بالتناول وتارةً يكون بالقهر[3] مثال الأول قوله تعالى ﴿ قَالَ مَعَاذَ اللهِ أَنْ نَأْخُذَ إِلَّا مَنْ وَجَدْنَا مَتَاعَنَا عِنْدَهُ﴾[4] والآية هنا من الثاني، وذلك كما في قوله تعالى ﴿ وَكَذَلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرَى ﴾[5]. والفاء في (فأخذناه) سببية، وفيه تسلية للأولياء وتحذير للأعداء.

(فنبذناهم) النبذ إلقاء الشيء، وطرحه لقلة الاعتداد به[6] ومنه قوله تعالى ﴿كَلَّا لَيُنْبَذَنَّ فِي الْحُطَمَةِ ﴾[7]

(اليم) البحر سمى بذلك لقصد إغراقهم فيه، ولذا يقال: يممت كذا

---

(١) الشعراء / ٣٤.

(٢) الشعراء / ٢٧.

(٣) المفردات للراغب / ١٢.

(٤) يوسف / ٧٩.

(٥) هود / ١٠٢.

(٦) المفردات للراغب / ٤٨٠.

(٧) الهمزة / ٤.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

قدرته[1]، وقوله (فتيمموا صعيداً طيباً) اقصدوا الصعيد الطيب، والمقصود أن الله تعالى أخذ فرعون وجنوده قهراً وطرحهم جميعاً في البحر غير معتد بهم، لكمال قدرته وعظيم إرادته سبحانه.

(مليم) اللوم عذل الإنسان بنسبته إلى ما فيه لوم، يقال: لمته فهو ملوم، ومنه قوله تعالى ﴿فلا تلوموني ولوموا أنفسكم﴾[2] والام استحق اللوم وأتى بما يلام عليه، والتلاوم أن يلوم بعضهم بعضاً [3].

فهو قد أتى - قبحه الله - بما يستحق عليه اللوم من الكفر والعناد، فاللوم على الفعل الذي اقتضى معنى ثلاثي الفعل (لوم) كأغرب إذا أتى أمرا غريباً فليس الفعل هنا للنسب أو للإسناد.

فما يلام عليه فرعون مختلف حاله باعتبار من وصف به، فلا يتوهم اتفاق الوصفين بينه وبين ذي النون عليه السلام في قوله ﴿ فَالْتَقَمَهُ الْحُوتُ وَهُوَ مُلِيمٌ ﴾[4] لأن لوم ذي النون إنما هو لوم نفسه على ما وقع منه.

فلوم فرعون لما أتى به من الأفعال الكفروية والطغيان والعناد، ولذا ترتب عليه ذلك العذاب الأليم وهو الغرق، واللعن والقبح أبد الدهر على ألسنة الخلق.

وأما لوم ذي النون عليه السلام، فهو أنه كان يلوم نفسه وهو في الحوت حتى انتهى إلى ما انتهى إليه، من الله تعالى عليه بنبذه بالعراء وإنبات ما يعود عليه بالنفع من الطعام، والإنعام عليه بإيمان قومه وجملة (وهو مليم) حال من الضمير في

---

(١) المفردات للراغب / ٥٥٢.

(٢) إبراهيم / ٢٢.

(٣) المفردات للراغب / ٤٥٦، ٤٥٧.

(٤) الصافات / ١٤٢.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

قوله (فأخذناه) وتقديره: أن حاله وشأنه آت بما يلام عليه من الكفر والعناد وتكذيب الرسل.

* معنى الآيات:

وفى قصة موسى عليه السلام مع فرعون وأمره دلالة عظيمة، وذلك وقت أرسله الله تعالى بكمال قدرته وعظمته إليه، وحاله وقت إرساله مصاحباً حجة عظيمة واضحة، هي الآيات المعجزة الدالة على صدقه فيما يخبر عن الله تعالى من توحيده وشرعه، فأعرض فرعون بسبب ما يركن إليه من القوة في نفسه وبأعوانه وجنوده، وقال اللعين مغالطاً وموهماً قومه: إن الذي أرسل إليكم ساحر جاء بأمر خفي غريب أو هو مجنون قد مسه جن، وذلك لاجترائه عليه على ما له من العظمة والأبهة في قومه، فقهره الله تعالى فأخذه بسبب ذلك الكفر والعناد فألقاه وطرحه في البحر هو وجنوده الذين كان يركن إليهم من غير اعتداد بهم لحقارتهم، وحال فرعون وشأنه وقت غرقه آت بما يلام عليه من أفعال الكفر والمعاصى والتكذيب والعلو في الأرض بغير حق.

وكان ذلك الهلاك الذي وقع به وجنوده أشبه بالقسم الثاني في أول السورة بالريح التي تحمل السحاب المملوء بالمطر الذي هو دورة مائية بعوامل متعددة قدرها الله تعالى، ليعود مرة أخرى إلى البحر الذي أرسلت إليه الريح فنشفت أرضه، ونجى الله تعالى به موسى ومن معه، وأغرق فيه فرعون وأتباعه أجمعين.

* بعض ما يستفاد من الآيات:

١- إقامة الحجة على كل أمة بعث فيها رسول، بحيث لا يكون لهم أي شبهة في عدم الاتباع فإن الله تعالى لا يظلم أحداً.

٢- الريح آية عظيمة، يمكن أن تكون بعثاً للخير لقوم وبعثاً للشر لآخرين، ولذا

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

كان حكمة القسم بها في أول السورة، والربح هو الذي يسوق الآيات الأخرى.

٣ – كل رسول يبعث إلى أمة لا بد أن يكون مؤيداً بالمعجزات التي تتناسب مع ما في بيئة الأمة التي بعث فيها، لأن ذلك أدعى لإقامة الحجة عليهم.

٤ –ليس لدى المكذبين المعاندين بعد إقامة الحجة عليهم سوى المغالطة والتمويه والمراوغة، إذ الحق أبلج.

٥ – كل أمة مكذبة حق عليها العذاب، تؤخذ بعذاب هو من جنس عملها وتكذيبها، جزاءً وفاقاً.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

* قول الله تعالى ذكره:

﴿ وَفِي عَادٍ إِذْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الرِّيحَ الْعَقِيمَ ۞ مَا تَذَرُ مِنْ شَيْءٍ أَتَتْ عَلَيْهِ إِلَّا جَعَلَتْهُ كَالرَّمِيمِ ۞ وَفِي ثَمُودَ إِذْ قِيلَ لَهُمْ تَمَتَّعُوا حَتَّى حِينٍ ۞ فَعَتَوْا عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ فَأَخَذَتْهُمُ الصَّاعِقَةُ وَهُمْ يَنْظُرُونَ ۞ فَمَا اسْتَطَاعُوا مِنْ قِيَامٍ وَمَا كَانُوا مُنْتَصِرِينَ ۞ وَقَوْمَ نُوحٍ مِنْ قَبْلُ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ ﴾

(المكذبون بالوعد والوعيد اغترارا بقوتهم)

ولما ذكر سبحانه قصة المكذبين بالوعد والوعيد اغتراراً بنعمه سبحانه، وقد جمع في هلاكهم السحاب والماء والريح، أتبعها قصة من اغتروا بقوتهم وقد أتاهم بريح ذارية لم يوجد مثلها قط، وقد كان أصلها موجوداً بين ظهرانيهم وهم لا يشعرون به، وقد قاربت الوصول إليهم، وهم يظنون أنها لنفعهم، فأتى لهم الهلاك والشر من حيث يرجون نفعه.

و(عاد) اسم رجل من العرب الأولى وبه سميت القبيلة، وهم قوم هود عليه السلام، وسمى عاداً لتقدمه، إذ يقال: للملك القديم عادى[1]، فكل ما هو قديم كأنه منسوب إليهم، والعرب تنسب البناء الوثيق والبئر المحكمة الطمي الكثيرة الماء إلى عاد.

(العقيم) الريح العقيم يصح أن تكون بمعنى الفاعل، وهى الريح التي لا تلقح سحاباً، ولا شجراً ويصح أن تكون بمعنى المفعول، كالعجوز العقيم، وهي التي لا تقبل أثر الخير، وإذا لم تقبل ولم تتأثر ولم تعط ولم تؤثر[2]، فوصف الريح بالعقم لأنها أهلكتهم وقطعت دابرهم أو لأنها لم تتضمن خيراً ما من إنشاء مطر أو لقاح

---

(١) المصباح المنير ج٢ / ٨٨.

(٢) المفردات للراغب / ٣٤٢.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

شجر، ولا رحمه فيها ولا بركة.

و(في عاد) معطوف على (وفى موسى) كما ذكر قبل، وتقديره: وفى قصة عاد آية عظيمة حين أرسل الله تعالى بكمال قدرته وعظمته عليهم بسبب كفرهم وعنادهم الريح التي تحمل سحابة سوداء، وهى تذر الرمل وترمى بالحجارة، وهى لذلك عقيم، لا ثمرة لها.

وإفراد الريح غالباً في عادة القرآن الكريم، إشارة إلى أنها ريح شر وبلاء، لا خير فيها بوجه.

(ما تذر) ذروت الشيء طيرته وأذهبته، وما تذر من شيء فهي لا تدع ولا تترك شيئا من الأشياء وجرت عليه إلا أهلكته.

(كالرميم) الرم إصلاح الشيء البالي، والرمة تختص بالعظم البالي ويقال: أرمت عظامه إذا سحقت حتى إذا نفخ فيها لم يسمع لها دوى[1]، فقد أصبحوا بعد أن جاءتهم تلك الريح العقيم كالشيء، البالي الذي ذهلته الأيام والليالي فصيره البلى إلى حالة الرماد، كأنهم نبات قد يبس ودثر.

والمقصود أن الريح أهلكتهم فقطعت بالاستئصال نسلهم، شبه ذلك الإهلاك بعدم الحمل لما فيه من إذهاب النسل.

وجملة (جعلته كالرميم) حالية، وقيل: هي موضوع المفعول الثاني لـ (تذر) والتقدير: ما تترك من شيء إلا مجعولاً كالرميم[2]، وهذا أظهر من كونها حالية، لكن الجار والمجرور (كالرميم) يكون حالاً من الضمير (جعلته)، و (جعلته كالرميم) جميعاً مفعول ثاني لـ (تذر).

---

(١) نفس المصدر السابق / ٢٠٣.

(٢) حاشية الجمل ج٤ / ٢٠٧.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

ومجيء (كالرميم) على وزن فعيل لبيان المبالغة في هلاكهم، وتصوير حالهم بعد الهلاك بالرمم البالية، و قد أصبحوا أثراً بعد عين،كما قال سبحانه:﴿ تُدَمِّرُ كُلَّ شَيْءٍ بِأَمْرِ رَبِّهَا ﴾[1].

وإيثار التعبير بقوله (أتت عليه) لبيان إتيان إرادة مرسل الريح سبحانه، إذ هو الفاعل المختار فاستعلاها على ظاهر وباطن كل شيء، منهم، وأما من أريدت رحمته كهود عليه السلام ومن معه فكان لهم روحاً وراحة لا عليهم.

و(ثمود) من ثمد والثمد الماء القليل الذي لا مادة له، ويقال: فلان مثمود ثمدته النساء، بأن قطعت مادة مائه لكثرة غشيانه لهن.

وثمود عجمي، وقيل عربي، وترك صرفه لكونه اسم قبيلة[2].

(تمتعوا) المتاع انتفاع ممتد الوقت، يقال: متعه الله بكذا وأمتعه وتمتع به فكل موضوع ذكر فيه و(تمتعوا) في الدنيا فعلى طريق التهديد، وذلك لما فيه من معنى التوسع[3]. والمقصود هنا التهديد لهم، اعتقاداً منهم أن متاعهم ممتد من غير وقت محدود.

(حين) الحين وقت بلوغ الشيء وحصوله، وهو مبهم المعنى، ويتخصص بالمضاف إليه، ومنه قوله تعالى ﴿ وَلَاتَ حِينَ مَنَاصٍ﴾[4] وقد فسر هذا الوقت المبهم بقوله في الموضع الآخر ﴿ فَقَالَ تَمَتَّعُوا فِي دَارِكُمْ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ ﴾[5]

---

(١) الأحقاف / ٢٥.

(٢) المفردات للراغب / ٨١.

(٣) نفس المصدر السابق / .

(٤) سورة ص / ٣.

(٥) هود / ٦٥.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

و (في ثمود) معطوف على (وفي عاد) والتقدير: وفي قصة ثمود آية عظيمة حين قيل لهم على سبيل التهديد: تمتعوا إلى مدة معلومة هي ثلاثة أيام قيل: قال لهم صالح عليه السلام: تصبح وجوهكم غداً مصفرة وبعد غد محمرة واليوم الثالث مسودة، ثم يصحبكم العذاب[1].

(فعتوا) العتو النبو عن الطاعة، يقال: عتا يعتو عتواً وعتياً، ومنه قوله تعالى ﴿ وَعَتَوْا عُتُوّاً كَبِيراً ﴾[2].

والمقصود أن ثمود استكبروا عن الامتثال لأمر الله تعالى وطاعة رسوله.

وجاءت الفاء في قوله (فعتوا) للدلالة على التفصيل في القصة إذ العتو ذكر مؤخراً، والفاء جاءت لبيان الترتيب، إذ الأصل كأنه قيل: وجعلنا في زمان قولنا ذلك لثمود آية، فاستكبروا بالعتو عن الامتثال لأمر الله تعالى، فقيل: تمتعوا حتى حين، وهو الثلاثة أيام، فأخذتهم... وهو نظير قوله (فتولى بركنه) مرتب على القصة زمان إرسال موسى عليه السلام بالسلطان.

فكان العتو أولاً، فقيل لهم: تمتعوا ثانياً، إذ ظهر أنه لا يرجى منهم خير.

(الصاعقة) الصاعقة والصاقعة يتقاربان، وهما الهدة الكبيرة، إلا أن الصقع يقال في الأجسام الأرضية، والصعق في الأجسام العلوية فالصاعقة هي الصوت الشديد من الجو، ثم يكون منه نار فقط أو عذاب أو موت، وهي في ذاتها شيء واحد، وهذه الأشياء تأثيرات منها[3].

---

(١) تفسير أبي السعود ج ٨ / ١٤٢ .

(٢) الفرقان / ٢١.

(٣) المفردات للراغب / ٢٨١.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

فلما وعدهم صالح عليه السلام الهلاك بعد ثلاثة أيام أهلكتهم الصاعقة التي جاءتهم من السماء، فأصبحوا لا يرى إلا مساكنهم، وقد هلكوا عن آخرهم ونجى الله تعالى صالحاً عليه السلام ومن معه، بعد أن عاين الذين أهلكوا تلك الصيحة، أو جاءتهم الصيحة والحال أنهم ينتظرون الأخذ والعذاب في تلك الأيام الثلاثة، التي رأو فيها علاماتها، وانتظار العذاب أشد من العذاب نفسه فجملة (وهم ينظرون) حال.

(قيام) من قولهم: ما يقوم فلان بكذا إذا عجز عن دفعه[1]، وذلك بأن عاجلهم العذاب بالهلاك عن القيام، وهو نظير قوله تعالى ﴿ فَأَصْبَحُوا فِي دِيَارِهِمْ جَاثِمِينَ ﴾[2].

والمقصود أنهم لم يستطيعوا دفع العذاب بأنفسهم لعجزهم عن ذلك كل العجز، وما كانوا كوناً ما منتصرين بغيرهم، فانتفى دفع العذاب من جهة أنفسهم، ومن جهة غيرهم، وهو نفي للدفع عن طريق العموم والشمول فلم يكن فيهم أهلية للانتصار بوجه والتعبير بـ (ربهم) لبيان حقه عليهم من جهة الإحسان بنعمه عليهم وتربيته لهم المستلزمة بعبادته والتزامهم لأمره.

وهذه الصيحة العظيمة التي أخذتهم قد حملتها الريح فأوصلتها إلى مسامعهم بغاية العظمة، وقد رجت ديارهم رجة أزالت أرواحهم وهو عائد إلى ما ذكر في أول السورة، من بيان قوة وشدة الريح الحاملة للخير تارة وللشر أخرى. والمشيرة إلى جانب الوعيد فيها

ولذا أتبع هذه القصة بقصة من أهلكوا بما من شأنه الإحياء وهو الماء الذي جعل ما يشمل عليه الحاملات التي أثارتها الذاريات وقد هيأ أسباب النجاة من

---

(١) روح المعاني للألوسي م ٩ ج ٢٧ص ١٧.

(٢) هود / ٦٧.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

السفينة، لمن أراد لهم النجاة.

(فاسقين) الفسق هو الخروج عن حجر الشرع، من قولهم: فسق الرطب إذا خرج عن قشرة، وهو أعم من الكفر.

والفسق يقع بالقليل من الذنوب وبالكثير، لكن تعورف فيما كان كثيراً وأكثر ما يقال الفاسق لمن التزم حكم الشرع وأقر به، ثم أخل بجميع أحكامه أو ببعضه[1]، ومنه قوله تعالى ﴿فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ ﴾[2].

وقيل للكافر الأصلي فاسق، لأنه أخل بحكم ما ألزمه السمع والعقل واقتضته الفطر.

فقبل هذه الأمم كلها أهلك الله تعالى قوم نوح عليه السلام، وذلك لأنهم كانوا خلقاً وطبعاً قوماً

أقوياء عريقين في الخروج عن حظيرة الدين.

فـ (قوم) منصوب لفعل محذوف، وتقديره. وأهلكنا قوم نوح، لأن ما قبله يدل عليه، أو هو منصوب بـ اذكر، أو عطف على الضمير في (فأخذهم).

وقيل: (فنبذناهم) وجوز أن يكون عطفاً على محل (وفى عاد) أو (وفى ثمود)، وقرئ (قوم) بالجر، وتقديره: وفى قوم نوح آية، وقرئ (قوم) بالرفع على الابتداء، والخبر محذوف، وهو: أهلكناهم. وإيثار (فاسقين) لبيان أنه خروج مطلق شامل للكفر والعصيان.

---

(١) المفردات للراغب / ٣٨٠.

(٢) الكهف / ٥٠.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

* معنى الآيات:

لقد كان في إهلاك عاد قوم هود عليه السلام آية عظيمة ودلالة أكيدة على كمال قدرة الله تعالى، وقت أرسل إليهم الريح التي ليس فيها شيء من الخير، فما تركت شيئا من الأشياء الصالحة للتدمير مرت عليه إلا مجعولاً كالعظام البالي المفتت، وفى إهلاك قبيلة ثمود قوم صالح عليه السلام آية أخرى عظيمة دالة على كمال عظمة وقدرة الله تعالى، حين قيل لهم من قبل صالح عليه السلام بعد أن عتوا وبغوا وكذبوا: تمتعوا تهديداً في دراكم ثلاثة أيام، فأخذتهم الصاعقة التي جاءتهم من السماء، وهم ينتظرونها فكان ذلك الانتظار أشد إيلاماً من نزول العذاب، فلما أخذتهم الصيحة لم يستطيعوا قياماً من أنفسهم، بل كانوا عاجزين كل العجز عن دفع العذاب، وما كانوا منتصرين من قبل غيرهم فلم يكن لهم دفع بوجه من الوجوه.

وفى قوم نوح عليه السلام آية عظيمة من قبل هؤلاء الأمم جميعاً أهلكناهم بسبب أنهم كانوا قوماً خارجين خروجاً مطلقاً بالكفر والمعاصي.

وكل قوم من هؤلاء الأقوام قد أخذ بما يستحق، وبما يتناسب مع ذنبه متناسقاً مع تلك الآيات التي ذكرت في كل السورة من الريح والسحاب والماء والبحار، بالتنبيه على الوعد والوعيد فسبحان من هذا كلامه.

*** بعض ما يستفاد من الآيات:**

١ - كل أمة لا يرجى منها نفع بأي وجه من الوجوه تؤخذ بعذاب الاستئصال، بما هو من جنس عملها فقوم عاد أخذوا بالريح التي لا نفع فيها بوجه.

٢- من أسباب الأخذ بعذاب الاستئصال العتو والمكابرة بعد البيان، فاستحبوا العمى على الهدى.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

٣- إن من أشد العذاب، معاينة العذاب قبل نزوله فانتظاره ومشاهدته أشد إيلاماً من العذاب نفسه.

٤ - المكابرة والعناد من المخالفين أوصلهم إلى عدم إدراك ضعفهم وضعف غيرهم من المخلوقين.

٥- تذكير الخلق بإهلاك الأمم المكذبين قبلهم، لإقامة الحجة عليهم من كل وجه، ولأن لا يكون لهم حجة بعد التذكير، ولبيان أن الوعد والوعيد حق لا خلاف فيه.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

* قول الله تعالى ذكره:

﴿ وَالسَّمَاءَ بَنَيْنَاهَا بِأَيْدٍ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ ۞ وَالأَرْضَ فَرَشْنَاهَا فَنِعْمَ الْمَاهِدُونَ ۞ وَمِنْ كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ۞ فَفِرُّوا إِلَى اللهِ إِنِّي لَكُمْ مِنْهُ نَذِيرٌ مُبِينٌ ۞ وَلَا تَجْعَلُوا مَعَ اللهِ إِلَهًا آخَرَ إِنِّي لَكُمْ مِنْهُ نَذِيرٌ مُبِينٌ ﴾

(إحكام وعظم خلقه الموجب ألوهيته تعالى المستلزم الإيمان بوعده ووعيده)

ولما كان إهلاك أقوام الذين ذكروا قبل، بالماء الذي نزل من السماء، وطلع من الأرض بغير حساب كان ربما ظن ظان وتوهم متوهم أن ذلك كان لخلل في كل من السماء والأرض ثم أصلح بعد ذلك كما يقع لبعض الخلق، يصنع صنعاً يبالغ في إتقانه ثم يطرأ عليه خلل، فرد سبحانه على هذا الظن ببيان إحكام خلقه وكماله الموجب لألوهيته، وأنه المعبود بحق لأنه خلق كل شيء وأتقنه وأحكمه غاية الإحكام، كما أحكم وعده ووعيده.

(بأيد) من آد الرجل يئيد قوى، فالأيد القوة والشدة والآد بالمد مثله[1] وليس أيد جمع يد ونظيره قوله تعالى في داود عليه السلام ﴿ ذَا الأَيْدِ إِنَّهُ أَوَّابٌ ﴾[2] وقد ورد هذا المعنى عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: بأييد بقوة[3]. وإن صحت التورية به[4]، كما قيل.

(لموسعون) الوسع الجدة والطاقة، والغنى والقدرة[5] قيل: إن الوسع راجع

---

(١) مختار الصحاح / ٣٥.

(٢) سورة ص / ١٧.

(٣) الدر المنثور للسيوطي ج ٧ / ٦٢٣.

(٤) حاشية الشهاب ج ٨ / ٩٩.

(٥) المفردات للراغب / ٥٢٣.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

إلى السماء، وقيل: الوسع الطاقة، وقيل: أوسع الرزق بالمطر والماء، أو ما بينهما وبين الأرض[1]. والمقصود: أن الله تعالى بكمال قدرته وعظمته قد بنى السماء بقوة وشدة عظيمة لا يقدر قدرها، وأن الله تعالى بعظمته لغني قادر ذو سعة لا تتناهي، فهو مطيق لما لا يحصى من أمثال ذلك الخلق العظيم، ومما هو أعظم منه مما لا يتناهى، وهو محيط بكل شيء قدرة وعلماً، ومن اتساع السماء جعلها بلا عمد، مع ما عليها من عظيم الخلق.

و(والسماء) نصبه بفعل يفسره (بنيناها) وتقديره: وبنينا السماء بنيناها، و(وإنا لموسوعون) جملة حالية، وتقديره. والحال إنا لموسعون بناءها.[2]

ولذا فالأرض كلها على اتساعها، كالنقطة في وسط دائرة السماء بما اقتضته صفة الإلهية التي لا يصح فيها الشركة أصلاً، فالأرض بالنسبة للسماء كحلقة في فلاة. وإيثار (لموسعون) على غيره لبيان شمولية القدرة والغنى لله تعالى الذي له كمال القدر وكمال الغنى، وهو بمثابة الدليل على صدق وعده ووعيده وأنه ذو سعة.

(فرشناها) الفرش والفراش بسط الشيء[3]، يقال: فرش الشيء، يفرشه فراشاً بسطه، والمفروش يقال لمتاع البيت.

والمقصود بفرش الأرض هنا تمهيدها وبسطها وتسويتها، بحيث تكون كالفراش الذي يوطأ ومهد للاستقرار عليه، فهي ممهدة للاستقرار عليها والسير فيها، ولا ينافي هذا كريتها، فلو لم تكن كرية، ما كانت مهداً، فإذا بدأ أحد السير من نقطة الوسط عاد إليها مرة أخرى، فهي ممهدة كرية.

---

(١) وضح البرهان النيسابوري ج٢ / ٣٣٣.

(٢) البحر المحيط لأبي حيان ج ٨ / ١٤٢.

(٣) المفردات للراغب / ٣٧٥.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

(فنعم) نعم كلمة تستعمل في المدح بإزاء بئس في الذم[1]، ومنه قوله تعالى ﴿ نِعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ ﴾[2]، فهو لإنشاء المدح، والمخصوص بالمدح محذوف والتقدير هنا: فنعم الماهدون نحن.

(الماهدون) يقال: مهدت لك كذا هيأته وسويته[3]، ومنه قوله تعالى ﴿وَمَهَّدْتُ لَهُ تَمْهِيدًا﴾[4]

فتمهيد الأرض تسويتها وإصلاحها للسير والعيش عليها، فهي صالحة للاستقرار عليها.

و(الأرض) نصب بفعل يفسره ما بعده، وتقديره: وفرشنا الأرض فرشناها.

وإيثار (لماهدون) على غيره لبيان شمولية التسوية والبسط والإصلاح، وهو يشير إلى أن هذا الفعل لا يسند لغيره بحال إذ لا يقدر على هذا إلا هو.

فإيثار اللفظ الأعم في مثل هذه التراكيب – وهي عادة القرآن – لاندراج جميع المعاني التي تحت هذا اللفظ.

(زوجين) الزوج يقال لكل واحد من القرينين من الذكر والأنثى في الحيوانات المتزاوجة زوج ولكل قرينين فيها وفي غيرها زوج كالخف والنعل، ولكل ما يقترن بآخر مماثلاً له أو مضاد زوج، ومنه قوله تعالى ﴿ فَجَعَلَ مِنْهُ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَالْأُنْثَى﴾.

---

(١) نفس المصدر / ٥٠٠.

(٢) سورة ص / ٤٤.

(٣) المفردات للراغب / ٤٧٦.

(٤) المدثر / ١٤.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

وزوجة لغة رديئة، وجمع الزوج أزواج[1]، والآية تنبيه على أن الأشياء كلها مركبة من زوجين وأن كل ما في العالم زوج من حيث أنه له ضداً أو مثلاً مـا، أو تركيباً ما، وهذا لازم وهو يريد بذلك الحصر، التام، وهو الذي أشار إليه في موضع آخر بقوله ﴿وَالشَّفْعِ وَالْوَتْرِ﴾[2] فالشفع الزوج.

(لعلكم) لعل للرجاء والوقع والتوكيد لذلك، والتوقع هـو الترجـي فـي المحبوب، والإشفاق في المكروه.[3]

وذكر بعضهم أن (لعل) من الله تعالى واجب، وفسرها بعضهم في كثير من المواضع بـ (كي)، وتقديره: فعلنا ذلك كله كي تتذكروا[4].

فتعرفوا أنه الخالق لكل شيء ورازقه، وأنه المستحق للعبادة وحده قال بعض العلماء: لا يصح على الله تعالى الطمع والإشفاق، غير أنه إن كان طمعاً فإن ذلـك يقتضي في كلامهم تارة طمع المخاطب، وتارة طمع غيرهما[5]، وتقديره هنا: فعلنـا ذلك كله رجاء أن تتذكروا، كما في قوله تعالى ﴿ لَعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَى ﴾[6] ومعناه: فقولا له قولاً ليناً راجين أن يتذكر أو يخشى، وقوله (لعلكم تفلحون) معناه: اذكروا الله راجين الفلاح.

---

(١) المفردات للراغب / ٢١٦.

(٢) الفجر / ٣.

(٣) المفردات للراغب / ٤٥١.

(٤) تفسير أبي السعود م ٧ ج ٨ / ١٤٣.

(٥) المفردات للراغب / ٤٥١.

(٦) سورة طه / ٤٤.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

(تذكرون) يقال: ذكرته بلساني وبقلبي، وذكرته ما كان فتذكر[1]. وكأن التذكر يكون بشيء معلوم لدى المخاطب، غير أنه ذهل عنه، أو لم يعمل بموجب ما يعلم فيذكر به، فالأمر للعمل به.

إذا العلم مستلزم العمل، وكان ذلك على طريقة الملوك في الخطاب، وهو المعنى الذي تحمله (لعل).

فهو حين يقول (لعلكم تذكرون) بأسلوب الترجي فهو أمر بالعمل بما علم وكأنه يقول: تذكروا فاعملوا بموجب هذا العلم الذي نخبركم به، أو بما عندكم من علم، وفيه رائحة التوبيخ لعدم تذكرهم، أو: لعلكم تذكرون بأني باني السماء وفارش الأرض وخالق الزوجين تعالى أن يكون له زوج، أو تذكرون أنه لا يعجزه حشر الأجساد وجمع الأرواح، وقيل: إرادة أن تتذكروا فتعرفوا الخالق وتعبدوه وقرئ (تذكرون) تتذكرون بتاءين وتخفيف الذال.[2]

ولذا آثر أسلوب الترجي على مجرد الأمر، لما يحتوي على هذه المعاني الجامعة بين الأمر والعلم والعمل.

(ففروا) الفر من فريفر بكسر الفاء فرارا هرب[3]، ومنه قول تعالى ﴿ فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعَائِي إِلَّا فِرَارًا ﴾[4].

والمقصود: أقبلوا والجؤوا إلى الله وحده بالاعتصام به وتوحيده (نذير)

---

(١) المصباح المنير ج١/ ٢٢٣.

(٢) البحر المحيط لأبى حيان ج ٨ / ١٤٢.

(٣) مختار الصحاح / ٤٩٦.

(٤) سورة نوح / ٦.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

الإنذار إخبار فيه تخويف، كما أنه التبشير إخبار فيه سرور[1]، ونذير جمعه نـذر، ونذير جمعه نذر، والنذير المنذر وكذا الإنذار وقوله ﴿ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ ﴾[2] معناه ؟: إنذاري.

والفاء في (ففروا) لترتيب الأمر (فروا) على ما ذكر من التذكر الموجب للفرار من آثار غضبه، إلى الفرار إليه سبحانه، وكأنه قيل: قل لهم: إذا كان الأمـر كما ذكر، فاهربوا إلى الله الذي هذه شئونه بالإيمان والتوحيد والطاعة، كي تنجوا من عقابه وتفوزوا بثوابه.

أو الفاء للعطف على جملة مقدرة مترتبة على قوله (لعلكم تذكرون) كأنـه قيل: قل لهم: فتذكروا ففروا إلى الله تعالى بالاستسلام له بالتوحيد، إني لكم منـه لا غيره نذير بين النذارة من أن يفر أحد إلى غيره، فإنه لا يحصل له قصده، فهو أبان ما ينذر منه أو يحذر عنه.

وإيثار التعبير بـ (إلى) دون غيرها لبيان غاية الأمر بالفرار، وهـو الله تعالى وحده، وليس في (لكم) تخصيص بالأمر بالفرار للمخاطبين أو المبعوث فيهم ﷺ، فهو مبعوث للثقلين، والأمر بالفرار للجميع، وإنما التخصيص من جهة النذارة، وهو العقاب الأليم المترتب على عدم الفرار.

وإيثار التعبير بالفرار لينبه على أن وراء الخلق عقاب وعذاب وأمر حقه أن يفر منه. فجمعت لفظة (ففروا) بين التحذير والاستدعاء.[3]

والفرار إليه سبحانه يتضمن إفراده بالطلب والعبودية ولوازمها من المحبـة

---

(١) المفردات للراغب / ٤٨٧.

(٢) القمر / ١٦.

(٣) التفسير الوجيز.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

والخشية والإنابة والتوكل وسائر منازل العبودية فهو متضمن لتوحيد الإلهية التي اتفقت عليها دعوة الرسل صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين.

والفرار منه إليه يتضمن توحيد الربوبية وإثبات القدر وأن كل ما في الكون من المكروه المحذور الذي يفر منه العبد، إنما أوجبته مشيئة الله وحده فإن ما شاء كان ووجب وجوده مشيئته وما لم يشأ لم يكن وامتنع وجوده لعدم مشيئته وهو معنى قوله ﷺ: (وأعوذ بك منك). (١)

وإيثار التعبير بـ (نذير) دون (منذر) وإن كان غاية كل منهما واحد، غير أن (نذير) أبلغ لأنها على صيغة (فعيل)، فقد بالغ في الإنذار ﷺ بما جاءهم به من الحق.

(إلهاً) من أله يأله بالفتح عبد، ولفظ الجلالة (الله) أصله ألـه، فحذفت همزته وأدخل عليه الألف واللام فخص بالباري تعالى. (٢)

ولتخصصه به قال جل وعلا ﴿ هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيًّا ﴾(٣) والاستفهام يفيد النفي، والمعنى: هل تعلم له أحداً يستحق مثل اسمه، والجواب لا أحد يستحق مثل اسمه، لأن له سبحانه صفات الكمال والجلال وحده، فلذا استحق هذا الاسم وحده، لأنه جامع للأسماء الحسنى والصفات العلى فإله يطلق على كل معبود، والله تعالى هو الإله المعبود بحق.

(آخر) يقابل به الواحد، فهو أحد الشيئين، يقال: جاء القوم فواحد يفعل كذا،

---

(١) الحديث.

(٢) المفردات للراغب / ٢١.

(٣) سورة مريم / ٦٥.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

وآخر كذا[1]، يعنى: وواحد يفعل كذا.

والمقصود: ولا تجعلوا مع الله المعبود بحق، إلها ومعبودا واحدا آخر، إذ ليس له صفة من صفات الكمال الملزمة للألوهية فما سواه تعالى مخلوق، والمخلوق عبد وليس معبوداً.

والغاية من هذا النهي، هو النهي عن الشرك في العبادة، التي يجب أن تكون للمعبود الحق وحده، وهو الله ذو الكمال والجلال.

والتنكير في (إلهاً) وارد في سياق النهي فيعم، هو عموم النفي لا نفي العموم.

وليس قوله (إني لكم منه نذير مبين) تكراراً، ولا تأكيداً له، إذ الأول جاء بعد الأمر بالفرار إلى الله تعالى توحيداً وعبادة وطاعة لظهور الأدلة على ذلك والتحذير من مخالفة ذلك.

والثاني جاء بعد نهي، وهو النهي عن أعظم ما يجب الفرار منه وهو الشرك الذي هو أكبر الكبائر، وهو غاية التحذير بالوعيد، ومتضمن لوعده.

(فإني لكم منه نذير مبين) الأول مرتب على الأمر بالإيمان والتوحيد والطاعة، والثاني مرتب على عدم الإشراك، فهما متغايران لتغاير ما ترتب على كل منهما عليه.

وتقديم الأمر على النهي، لأنه هو المقصود بالذات، وهو نظير قوله تعالى ﴿فَمَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا﴾ [2].

---

(١) المصباح المنير ج١ / ١١.

(٢) الكهف / ١١٠.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

* معنى الآيات:

من الدلائل على وحدانية الله تعالى خلقه للسماء وبنائها على هذا الوجه الذي هي عليه، فهي بناء محكم لم يتطرق إليه خلل أو عيب على مر الدهور وقد بناها بقوة شديدة عظيمة القدر، وهذا الخلق العظيم الواسع دليل على سعة قدرته سبحانه وغناه، وسعته سبحانه لا نهاية لها.

وقد خلق الأرض على وجه الفراش، وجعلها ممهدة جديرة بأن يستقر عليها الأشياء، وهي دالة على تمهيده لأرض الجنة التي وعد المتقون، وشق الأنهار فيها وغرس الأشجار، فنعم ما مهده سبحانه، إذ هو دليل على كمال قدرته وعظيم منته وكل ما في الأرض يذكر بالجنة والنار، فما فوقها من خير فهو تذكير بالجنة، وما فيها من شر يذكر بالنار، وهما في النهاية مظهرا الوعد والوعيد.

وللتدليل على أنه تعالى واحد، ذكر بأن الخلق لا يكون إلا من شيئين، فما من شيء من المخلوقات إلا وهو من زوجين يراوح الآخر من وجه، وإن خالفه من آخر، فعل ذلك سبحانه رجاء أن يحصل للخلق تذكراً بهذه الأدلة فيفعلوا موجب التذكر، وهو توحيده سبحانه وطاعته.

فكل هذا الذي هو فعله تعالى وغيره يستوجب الفرار منكم أيها الخلق إليه وحده، بتوجيه العبادة له وحده وطاعته، فقد جاءكم النذير منه وحده ليحذركم من عدم توحيده وطاعته، وهذا النذير بين بالمعجزات الظاهرة الواضحة، وهو واضح في نفسه.

وهذا الإله العظيم الذي هذا بعض شأنه، لا تجعلوا معه أيها الخلق بسبب أهوائكم معبوداً آخر ليس له صفة واحدة مما ذكر فالله وحده هو المعبود بحق، لما له من صفات الكمال والجلال فلتحذروا أيها الخلق أن تجعلوا معه إلهاً آخر فإني لكم

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

نذير منه لا من غيره، إذ غيره لا يقدر على شيء من ذلك، بين النذارة والتحذير من الشرك في عبادته، إذ الشرك في العبادة أكبر الكبائر فالدين ولاء وبراء، ولاء بأن يعبد الله تعالى وحده ويطاع وحده، وبراء من الشرك بكل صوره وأنواعه ظاهره وباطنه، وهذا هو التوحيد الذي دعت إليه جميع الرسل والذي من أجله قامت السموات والأرض.

*** بعض ما يستفاد من الآيات:**

١ - التدليل على كمال قدرته وسعة علمه، بكمال وعظمة خلقه وسعته.

٢ - التدليل على وحدانيته وألوهيته وحده، بخلقه لجميع الخلق ذكراً وأنثى، وهو إشارة إلى جعله خلقه كلها متقابلات.

٣- وجوب الفرار إلى الله تعالى بعبوديته وحده، إذ هو المستحق للعبودية، لأنه موصوف بصفات الكمال والجلال وحده.

٤ - العبادة ولاء وبراء، ولاء بعبادته وحده، وبراء من الشرك، ولا يتم دين العبد إلا بتحقيق كل منهما، المترتب عليهما إيقانه بوعده ووعيده.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

• قول الله تعالى ذكره:

﴿ كَذَلِكَ مَا أَتَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا قَالُوا سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ ۞ أَتَوَاصَوْا بِهِ بَلْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ ۞ فَتَوَلَّ عَنْهُمْ فَمَا أَنْتَ بِمَلُومٍ ۞ وَذَكِّرْ فَإِنَّ الذِّكْرَى تَنْفَعُ الْمُؤْمِنِينَ ﴾

(تسلية وتسرية النبي ﷺ والمؤمنين بمقالات الأمم)

ولما ذكر قبل قول المعاندين المكابرين المختلف الذي منه تكذيب الرسول ﷺ ونسبته إلى السحر والجنون، وغير ذلك من الفنون، ومنه الإشراك مع إعترافهم بأنه لا خالق إلا الله ولا كاشف ضر غيره سبحانه، وأخبر بهلاك من هلك وحذر من الوقوع فيما وقعوا، ثم ذكر أن ما قاله قومه له، هو ما قاله الأمم قبل فسلاه بذكر ذلك، ليقوى قلبه ويثبت فؤاده.

(كذلك) الكاف بمعنى مثل، وذلك إشارة إلى الكلام الذي يتلوه بعد، وهو قوله تعالى (مَا أَتَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ).

و(كذلك) خبر لمبتدأ محذوف، والتقدير: الأمر في الأمم السابقة مثل ذلك والمقصود أن حال الأمم السابقة مع رسلهم مثل حال قومك معك فما أتى الذين من قبلهم من رسولٍ إلا قالوا هو ساحر أو مجنون كما قال لك قومك، أو قال بعض منهم: وساحر وقال بعض: مجنون، خبر لمبتدأ محذوف تقديره: هو ساحر أو مجنون، والجملة من المبتدأ والخبر في محل نصب مقول القول، لـ (قالوا).

ومجيء (من) في قوله (من رسول) للإغراق في النفي، وبيان أن المقصود عموم النفي.

(أتواصوا) الهمزة للاستفهام الإنكاري، وفيه رائحة التعجب والمقصود أنه يتعجب من إجماعهم من توارد نفوس الكفرة على تكذيب الأنبياء مع افتراق أزمانهم،

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

في قولهم تلك الكلمة الشنيعة.[1]

كأن الأولين والآخرين منهم أوصى بعضهم بعضا بهذا القول حتى قالوه جميعاً، وهو منفي، لأنهم لم يوص بعضهم بعضاً، لأنهم لم يكونوا في زمن واحد، وإنما توارثت نفوس الكفرة على التكذيب بتلك المقالة (بل) هو إضراب عن أن التواصي جامعهم إلى أن الجامع لهم على ذلك القول مشاركتهم في الطغيان الحاصل عليه.

(طاغون) الطغيان تجاوز الحد، والاستعلاء بغير حق، فالعلة الجامعة لهم، هو كونهم طغاة متجاوزين للحد مستعلين في الأرض مفسدين فيها عاتين. وإيثار الوصف بـ (طاغون) دون: كافرون أو ظالمون لشمول لفظ الطغيان مجاوزة الحد فقد علوا على كل صفة قبح، مجتمعوا كل القبائح، من كفر وظلم وغيرهما.

(فتول) يقال: تولى العمل تقلد، وتولى عنه أعرض، وولى هارباً أدبر[2].

والمقصود: كلف نفسك أيها الرسول الإعراض عن الإبلاغ في إبلاغهم بالمجادلة والصدع بالتغليظ بعد ما تقدم منك من الإبلاغ[3].

(فما أنت بملوم) لست أيها الرسول بمستحق الملامة بسبب إعراض من أعرض منهم عنك، وتوليك عنهم بعد ما بذلت المجهود وجاوزت في الإبلاغ كل حد معهود.

والفاء في قوله (فتولى) لترتيب الإعراض على طغيانهم، وتسبب الإعراض عن حالهم المستعلية عن قبول الحق.

---

(١) البحر المحيط لأبى حيان / ٨.

(٢) مختار الصحاح / ٧٣٦.

(٣) نظم الدر للبقاعي ج٧ / ٢٨٨.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

(وذكر) التذكر والتذكرة يكون لمعلوم فيتذكر من نسيان وهو أمر بالتذكير، فافعل التذكير أيها النبي والموعظة ولا تدعهما بالمرة أو فذكرهم فإن الذكرى المصاحبة للرفق واللين تنفع المؤمنين العريقين في وصف الإيمان، ولأن إكثار التذكير يغلب ما عندهم من نوازع الحظوظ وصوارف الشهوات، مع ما هم مجبولون عليه من النسيان[1]، ولأن التذكير يزيد المؤمنين بصيرة وقوة في اليقين.

وذكر المؤمنين لا يدل تخصيص التذكرة بهم، إذ التذكير عام لجميعهم - المؤمن وغيره - لكن الذي ينتفع بالتذكرة غالباً هو المؤمن ولذا فليت هذه الآية ناسخة للآية قبلها، وقوله (فتول عنهم) إذ المقصود الإعراض عن أقوالهم في التكذيب، وهذا لا يستلزم ترك دعوتهم إلى الحق وتذكيرهم به.

فالقول بالنسخ لمجرد توهم تعارض ظاهر الآيتين غير صحيح، إذ بهذا التفسير لا تعارض، فلا نسخ.

• معنى الآيات:

يخبر سبحانه في هذه الآيات مسلياً نبيه ﷺ أن الكفار المعاندين المنكرين للوعد والوعيد والبعث والنشور على مر العصور والدهور قبل، من الأمم السابقة كانت مقالاتهم جميعاً واحدة، وهي وصف من جاءهم من الرسل بالحق بأنه ساحر أو مجنون، لأنه كان يدعوهم إلى توحيد الله تعالى وعبادته، وحقية وعده ووعيده، وذلك على غير اتفاق بينهم، لأنهم لم يكونوا جميعاً في زمن واحد وإنما اتفقت الأفكار والتوارد النفسية على شيء واحد، هو الطغيان والاستعلاء على الحق.

فلا يكون في نفسك أيها النبي إن قيل لك ما قيل للرسل قبل، فأعرض عن جدالهم فقد كررت عليهم الدعوة، فأبوا إلا الإباء والعناد، فلست بملوم على التولي

---

(١) نظم الدر للبقاعي ج٧ / ٢٨٨.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

عنهم بعد ما بذلت كل مجهود في التبليغ، فلا تلتفت إلى مقالاتهم الباطلة التي لا دليل عليها بوجه، وذكر وعظهم، فلا تترك تذكيرهم لهذه المقالات إذ الذكرى والعظة ينتفع بها المؤمنون فتزيدهم بصيرة ويقيناً ولعل هؤلاء المعاندين ينفعهم التذكير والوعظة، وان لم ينتفعوا فقد بلغت وحذرت، وأقمت الحجة البالغة عليهم.

- **بعض ما يستفاد من الآيات:**

١ - ذكر أحوال الأمم قبل، إنما هو تسلية وتسرية للنبي ﷺ، والمؤمنين، حتى يثبتوا على ما هم عليه من الحق.

٢- مقالات الكفر غالباً ما تكون واحدة، أو متشابهة، لأنها مقالات إبليسية في الأصل.

٣- الإعراض عن مقالات الكفر، لأنها واهية، مع التذكير لإقامة الحجة.

٤ - الانتفاع بالتذكير، وأنه مفيد لكل أحد، وإن كان المؤمن هو المنتفع به، لعلمه بنفعه.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

- قول الله تعالى ذكره:

﴿ وَمَا خَلَقْتُ الجِنَّ وَالإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ۞ مَا أُرِيدُ مِنْهُمْ مِنْ رِزْقٍ وَمَا أُرِيدُ أَنْ يُطْعِمُونِ ۞ إِنَّ اللهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو القُوَّةِ المَتِينُ ۞ فَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا ذَنُوبًا مِثْلَ ذَنُوبِ أَصْحَابِهِمْ فَلَا يَسْتَعْجِلُونِ ۞ فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ يَوْمِهِمُ الَّذِي يُوعَدُونَ ﴾

(كمال القوة والقدرة والغنى لله تعالى في تحقيق ما وعد وما توعد به)

ولما أمر سبحانه بالفرار إليه وحده بعبادته وطاعته، ونهى عن مشاركة شيء معه في العبادة، لأنه حق له وحده، ونبه على أن كثيراً من الأمم عاندوا وكابروا برد هذا الحق المستلزم للبعث والوعد والوعيد بمقالات تواردت عليها أنفسهم الخبيثة، مع هذا فالتذكير موصول، ذكر سبحانه أن الخلق خلقوا لعبادته سبحانه، إذ هو الذي يستحقها لخلقه إياهم ولرزقه لهم الذي يستمرون به جنسا متناسلاً، وأن وعده ووعيده حق، كما أن رزقه حق والجنة حق والنار حق والبعث حق، والقيامة حق، إذ هو الحق المبين.

(الجن) من جنى يجن، والجن والجان ستر الشيء عن الحاسة وجنى عليه ستر عليه، ومنه قوله تعالى ﴿ فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ اللَّيْلُ رَأَى كَوْكَبًا ﴾[1].

و الجنان القلب، لكونه مستوراً عن الحاسة، وجن فلان قيل: أصابه الجن[2]، وكما استتر من الخلق هم من الروحانيين الذين هم بإزاء الإنس الذين يرون بالحاسة، ويدخل في الروحانيين الملائكة والشياطين، غير أن كل ملائكة جن لاستتارهم، وليس كل جن ملائكة.

(والإنس) الإنس خلاف النفور، والإنس يقال لمن كثر أنسه، ولكل ما يؤنس

---

(١) الأنعام / ٧٦.

(٢) المفردات للراغب / ٩٨، ٩٩.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

به، وجمع الإنس أناس، ومنه قوله تعالى ﴿ وَأَنَاسِيَّ كَثِيراً ﴾ [1]، والإنسان قيل: سمى بذلك لأنه خلق خلقة لا قوام له إلا بإنس بعضهم ببعض[2].

ولذلك قيل: الإنسان مدني بالطبع من حيث لا قوام لبعضهم إلا ببعض.

(ليعبدون) العبادة اسم جامع لجميع ما يحبه الله تعالى ويرضاه من الأقوال والأفعال الظاهرة

والباطنة، فكل ما يصدر من العبد من قول أو فعل قلبيا ولسانياً، لا بد أن يكون له فيه نية، فليخلص ذلك لله وحده، مع إظهار كمال الحب وكمال الذل والخضوع له سبحانه، والعبادة أبلغ من لفظ العبودية لأن العبادة غاية التذلل وغاية الحب، ولا يستحق ذلك إلا من له غاية الإفضال وهو الله تعالى[3]، ولذا كان لفظ عابد أبلغ من عبد لأن عابد إخلاص مع غاية الحب والتذلل، وعبد فيه معنى مجرد التذلل.

والله تعالى ما خلق الخلق إلا لعبادته، وبين لهم كيف يكونون عابدين، إذ الخلق جميعاً مؤمنهم وكافرهم عبيد له معنى التذلل الذي هو التسخير فهم لا يخرجون عن سنته الكونية في التذلل، لكن التوجه له بالإختيار إخلاصاً مع كمال الحب والذل هو المراد من الأمر بالعبادة، وهو المقصود هنا، ولذا قال في الآية الأخرى ﴿إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ﴾[4] وقوله ﴿ وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ ﴾[5].

---

(١) الفرقان / ٤٩.

(٢) المفردات للراغب / ٢٨.

(٣) نفس المصدر / ٣١٩.

(٤) الحجر / ٤٠.

(٥) الفرقان / ٦٣.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

ولعل تقديم الجن في الذكر، لتقدم خلقهم على خلق الإنس في الوجود والمراد بالجن من يقابلون الإنس، ولا يدخل معهم الملائكة، وإن كانوا داخلين لعموم البعثة، غير أن استغناءهم عن التذكير والموعظة لأنهم عباد مكرمون، ولأنهم أرواح من عالم الأمر المقابل لعالم الخق.

هذا هو مفهوم ومقصود العبادة، غير أنه قد اختلف في المراد بها هنا، ليس في مدلولها ومفهومها، إنما المطلوب من مفهومها ومدلولها العام، بناء على واقع الخلق مع الإرادة، إذ إن كثيراً من الخلق لا يعبده تعالى، وهذا تخلف عن الإرادة.

ولذا قال بعضهم إن معنى (ليعبدون): إلا ليعرفوه، ونسب إلى مجاهد[1] والمعرفة ليست هي العبادة، وإن كانت لازمة لها، وهذا يصلح لتوحيد الربوبية.

وقيل: إلا ليقروا لي بالعبادة طوعاً أو كرهاً، ونسب ذلك إلي ابن عباس رضي الله عنهما[2]، والإقرار مجرداً لا يكفى، إذ العبادة كما تقدم تعريفها، وإن كان الإقرار بالقلب لا بد منه، وقيل: إلا لآمرهم وأنهاهم، ونسب ذلك إلي مجاهد[3]، والأمر والنهي ليس هو العبادة، بل العابد يلزمه أنه يأتمر بأمره سبحانه، وينتهي عن نهيه، وقيل: إلا مهيئين ومستعدين ليعبدون، بأن خلق فيهم الحواس والعقل والقدرة والاستعداد الذي هو الغاية بالحقيقة[4]. والاستعداد غير العبادة، إذ ما أمرهم بعبادته إلا وهم قادرون مستعدون لذلك.

وقيل: إلا ليطيعوني وينقادوا لقضائي، وقيل. وما خلقت الجن والإنس

---

(١) حاشية الجمل / ٤ / ٢١٠.

(٢) زاد المسير لابن القيم الجوزي ج ٨ / ٤٢.

(٣) نفس المصدر ج٨/ ٤٢.

(٤) زاد المسير لابن القيم الجوزي ج ٨ / ٤٢.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

المؤمنين، فالمراد بهم الخصوص. وقيل: الطائعين.

وقيل: إلا ليوحدون، فأما المؤمن فيوحده في الشدة والرخاء، وأما الكافر فيوحده في الشدة والبلاء دون النعمة والرخاء.

وكل هذه الأقوال وغيرها ليس هو المراد بالعبادة التي تقدم بيانها وحقيقتها والتي يريدها الله تعالي من العباد أو الخلق، ولذا فقد اختلفوا في اللام في قوله (ليعبدون) فالجمهور من أهل السنة والجماعة يرى أن اللام هنا لام العلة، وهذا المعنى غالباً ما يصاحب اللام في معانيها، ولا يلزم أن يكون الرب سبحانه خلق الخلق لعلة باعثة، وإن كان لا مانع من تعليل أفعاله، وخلقه فعله، وقد جاء التنصيص في كثير من مواضع القرآن ذكره لعلة أفعاله، وذلك لبيان الحكمة من الفعل، لا أنه محتاج لفعل المخلوق، إذ فعل المخلوق الذي هو العبادة مأجور عليه، فخلقه له نعمة، وأمره بعبادته تعالي رحمة له.

ولعدم التفريق بين هذين الأمرين قال بعضهم: إن اللام هنا لام العاقبة والصيرورة، وليست لام العلة الباعثة[1].

وإذا كانت كما قالوا لام الصيرورة فإن المعنى يكون: وما خلقت الجن والإنس إلا وقد ترتب علي خلقهم أن عبدوني، فيعود الإشكال وهو أن العبادة لم توجد من جميعهم، وإنما وجدت من بعضهم.[2]

والذي أميل إليه هو أن اللام موضوعة للتخصيص وهذا المعنى يلاحظ في جميع معانيها، وفيها رائحة التعليل وهذا شأن حروف الجر، هي من الألفاظ المتواطئة فالمقصود: ما خلقت الجن والإنس إلا لخصوص عبادتي من غير أي

---

(١) حاشية الجمل / ٤ / ٢١١.

(٢) نفس المصدر / ٤ / ٢١١.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

شريك، بل العبادة له سبحانه وحده، وهذا ما تفيده اللام التي للتخصيص، وفيها بيان لحكمة الخلق فلم يخلق الله تعالى خلقه عبثاً، ولم يتركهم هملاً بلا أمر بعبادته، لأنها حقه وحده، فإن صرفوها لغيره بعد العلم بأنه المستحق لها، فهم معاندون مكابرون، ولم تختلف عنهم إرادته الكونية، لتركهم للإرادة الشرعية، بل هم تحت إرادته وقدرته، وكأن هذا المفهوم من هذا النص، كالمفهوم من قوله تعالى ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ (١) بل النص هنا زاد عليه من جهة أنه صدر بأسلوب الحصر، مع هذا التخصيص، ولكن (إياك نعبد) نص في التخصيص بتقديم المعمول ولذا فهو أقوى، وإنما جاء أسلوب الحصر هنا مع التخصيص لموضوع السورة الذي هو الوعد والوعيد الذي هو نتيجة الخلق والعبادة، الذي هو نظير الخلق والأمر.

(يطعمون) الطعم تناول الغذاء، ويسمى ما يتناول منه طعم وطعام، ومنه قوله تعالى ﴿وَطَعَامُهُ مَتَاعًا لَكُمْ﴾.(٢)

وقوله ﴿ وَلَا يَحُضُّ عَلَى طَعَامِ الْمِسْكِينِ ﴾(٣) يريد إطعامه الطعام وقد يستعمل في الشراب ومنه قوله تعالى ﴿ وَمَنْ لَمْ يَطْعَمْهُ فَإِنَّهُ مِنِّي ﴾(٤) ومن هذا المعنى قوله ﷺ في ماء زمزم: (إنه طعام طعم وشفاء سقم) (٥).

والمقصود أنه سبحانه بعدما ذكر أنه خلقهم لعبادته وحده ذكر أنه لا يريد أن يصرفهم في تحصيل رزقه ولا رزقهم، بل هو المتفضل عليهم بالرزق وما يصلحهم

---

(١) الفاتحة / ٥.

(٢) المائدة / ٩٦.

(٣) الماعون / ١٣.

(٤) البقرة / ٢٤٩.

(٥) الحديث.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

ويعيشهم من عنده، فليشتغلوا بما خلقوا له من عبادته، ولا يشتغلوا بما خلق لهم، لأنه آتيهم لا محالة، ولا يريد منهم أن يطعموا خلقه، شأن السادة مع العبيد في جلب الرزق، أو إعماله في إصلاح الطعام، فهو نفى للعين الذي هو الرزق ونفى للعمل الذي هو الإطعام، فهو سبحانه وحده الذي يرزق وهو الذي يطعم، ولذا قال سبحانه ﴿ وَهُوَ يُطْعِمُ وَلَا يُطْعَمُ ﴾[1].

وفائدة إعادة النفي مع الإرادة، للتنصيص علي أن نفى الإرادة الأولي لتعلقها بكسب الرزق والثانية متعلقة بإصلاحه، ولإزاحة أي وجه للوهم أو الاحتمال علي تعلق واحد منهما بالإرادة.

وخص الإطعام بالذكر لكونه معظم المنافع المطلوبة من المماليك بعد اشتغالهم بالأرزاق، ونفي الأهم يستلزم نفي ما دونه بطريق الأولي[2].

(ذو) اسم بمعنى: صاحب، وضع للتوصل إلي وصف الذوات بأسماء الأجناس، كما أن (الذي) وضعت صلة إلي وصف المعارف بالجمل.

والإضافة في (ذو) أبلغ من الإضافة في (صاحب)، ولذا كانت (ذو) في معرض الثناء والمدح ومنه قوله تعالي ﴿ وَذَا النُّونِ إِذْ ذَهَبَ مُغَاضِبًا ﴾[3]، وكانت (صاحب) فيما ظاهره اللوم، كما في قوله تعالي ﴿ وَلَا تَكُنْ كَصَاحِبِ الحُوتِ ﴾[4].

ولذا كانت (ذو) هنا للثناء والمدح، وهو سبحانه أهل للثناء، لما له من صفات الكمال والجلال.

---

(١) الأنعام / ١٤.

(٢) حاشية الجمل ج ٤ / ٢١١.

(٣) الأنبياء / ٨٧.

(٤) سورة ن / ٤٨.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

(المتين) الشديد منه الذي صلب، والمتن من الأرض وما صلب وارتفع[1]، وهو هنا تأكيد، لأن (ذو القوة) يفيد فائدته.

وقراءة العامة (الرزاق) بصيغة المبالغة، وقرئ (الرازق) كما قرئ قبل (وفي السماء رزقكم) اسم[2] فاعل، والقراءة الأولى أبلغ، وعامة القراء على رفع (المتين) وهو إما نعت لـ (الرزاق) وإما نعت لـ (ذو)، وإما نعت (إن) واسمها على الموضع، وإما خبر بعد خبر، وتعدد الخبر جائز، وإما خبر مبتدأ مضمر: هو المتين وقرئ (المتين) بالجر، على أنه صفة لـ (القوة) وجاز أن يكون وصفاً لها، لكون تأنيثها غير حقيقي[3]، وأنه مجرور على الجوار.

و على كل تقدير مما ذكر فهو تأكيد لمعنى (ذو القوة).

وإيثار التعبير بـ (ذو) لأنه فيه تعظيم ما أضيف إليه ولذا آثر التعبير بـ (القوة) دون القوى، لبيان هذا التفخيم للصفة.

وإلزام العبودية علي جميع الخلق له سبحانه، إذ هو الجامع لصفات الكمال والجلال كلها.

وإيثار لفظ الجلالة (إن الله هو الرزاق) لمدلول معناه الذي يشير إلي العبودية التي تدل علي الغنى وعدم الاحتياج، وفيه إشعار بعلة الحكم الذي هو عدم الإرادة للرزق أو الإطعام. ولأنه بدونها لا يكفى في تقرير عدم إرادة الرزق بوصف (القوة) بما لا مبالغة فيه لكفايته في تقرير عدم الإستعانة، فإنه من له قوة دون الغاية لا يستعين بغيره.

---

(١) المصباح المنير ج ٢ / ٢٢٦.

(٢) البحر المحيط لأبى حيان ج ٨ / ١٤٣.

(٣) حاشية الجمل ج ٤ / ٢١١.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

وإيثار (الرزاق) بصيغة المبالغة علي: الرازق، لإفادة استمرارية الرزق، وأنه لا ينقطع أبداً، وأنه كثير لا يمكن حصره أو عده.

وإيثار (أن يطعمون) من غير ذكر المعمول لإرادة العموم، سواء كان لخلقه أو غيرهم.

وبالجملة فالآية هذه علة الحكم السابق، وهو عدم طلبه سبحانه للرزق، لأن من يطلبه يكون فقيراً محتاجا، والله تعالي يقول ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ أَنْتُمُ الْفُقَرَاءُ إِلَى اللهِ وَاللهُ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ ﴾[1]. وعدم طلبه للعمل الذي هو إصلاح الطعام، لأن من يطلبه يكون عاجزاً لا قوة له، فهو لا يريد منهم من رزق لأنه هو الرزاق، ولا يريد منهم من عمل لأنه القوى المتين.

والآية فيها التفات إلى الغيبة، لبيان كمال الغنى بذاته.

(ظلموا) الظلم وضع الشيء في غير موضعه المختص به، إما بنقص أو بزيادة، وإما بعدول عن وقته أو مكانه، ومنه ظلمت الأرض حفرتها، ولم تكن موضعاً للحفر.

والظلم يقال في مجاوزة الحق الذي يجرى مجرى نقطة الدائرة، ويقال فيما يكثر، وفيما يقل من التجاوز، ولهذا يستعمل في الذنب الكبير وفي الذنب الصغير[2]، وأعظم الظلم الكفر والشرك والنفاق ومنه قوله تعالي ﴿ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ﴾[3] وهو المقصود في قوله ﴿ أَلَا لَعْنَةُ اللهِ عَلَى الظَّالِمِينَ﴾ [4].

---

(١) فاطر / ١٥.

(٢) المفردات للراغب / ٣١٥.

(٣) لقمان / ١٣.

(٤) سورة هود / ١٨.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

(ذنوبا)، الذنوب في الأصل الدلو الذي له ذَنَبٌ[1]، ويطلق تارة ويراد به النصيب، وهو مأخوذ من مقاسمة السقاة الماء بالذنوب وهو الدلو العظيم المملوء ماء، ولا يقال لها ذنوب وهي فارغة، وجمعها أذنبة، والمقصود به هنا النصيب العظيم من العذاب طويل الشر، كأنه من طوله صاحب ذنب، ويقال: يوم ذنوب: طويل الشر لا ينقضي.

(أصحابهم) جمع صاحب، وهم نظراؤهم من الأمم السالفة.

(فلا يستعجلون) الاستجعال طلب العجلة، يقال: استعجله منه علي العجلة وطلبها منه، واستعجله طلب وقوعه.

والفاء في قوله (فإن) فصيحة، وتقديره. إذا ثبت أن الله تعالي ما خلق الجن والإنس إلا ليعبدوه، وأنه ما يريد منهم من رزق، وما يريد أن يطعمون، فإن للذين تجاوزوا الحق إلي الباطل، وظلموا بذلك أنفسهم باشتغالهم بغير ما خلقوا له من العبادة، وإشراكهم بالله تعالي، وتكذيبهم رسول الله ﷺ وتعريضها للعذاب الخالد، وكذلك أضرابهم من الكفار لهم نصيب من العذاب الطويل، فلا يطلبوا الإتيان به واستعجاله إذ هو آت لا محالة، وتفيد كذلك ترتيب النهي عن الاستعجال علي ذلك.

والتعبير عن النصيب بالذنوب هنا، لشبهه به في أنه يصب عليهم العذاب، كما يصب الذنوب، وذلك كما في قوله تعالي ﴿ يُصَبُّ مِنْ فَوْقِ رُءُوسِهِمُ الحَمِيمُ ﴾[2].

(فويل) ويل كلمة يستعملها كل واقع في هلكة، وقيل: ويل الشدة من العذاب[3]، وقيل: ويل دعاء بشر حال، وعذاب يوجب الندب والتفجع وروى عن

---

(١) المفردات للراغب / ١٨١.

(٢) الحج / ١٩.

(٣) الوسيط في تفسير القرآن المجيد للواحدي ج١ / ١٣٨.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

النبي ﷺ قال: (ويل واد في جنهم يهوى فيه الكافر أربعين خريفاً قبل أن يبلغ قعره)[1].

وروى عن عطاء بن يسار قال: الويل: واد في جنهم لو سيرت فيه الجبال لانماعت من حره[2].

والويل في الأصل العذاب والهلاك في الاستعمال اللغوي، وهو بمعنى الدعاء الذي كان مسوغاً للابتداء به نكرة[3].

وإذا كان هذا أصل استعماله لغة قبل نزول الشرع، وذكر الشرع معناه علي هذه الحال، فلا مانع من أن يكون المراد به الدعاء بالعذاب والهلكة من حيث العموم ثم قيد الشرع هذا العذاب بواد في جهنم، أو أن يكون هذا أشر أنواع الويل لمن ورد في حقه شرعاً، ويبقى العموم في غيره، وبهذا يجمع بين اللغة والشرع.

والفاء في (فويل) لترتيب ثبوت الويل لهم علي أن لهم عذاباً عظيماً.

وجاء الإظهار في قوله (كفروا) في موضع الإضمار: فويل لهم، لأجل التسجيل عليهم بما في حيز الصلة من الكفر، وإشعاراً وبياناً بعلة الحكم، وأن الوقوع في مثل ما وقع فيه هؤلاء كفر.

و(من) في قوله تعالي (من يومهم الذي يوعدون) للتعليل وكأن اليوم من أجلهم، ولذا أضاف اليوم إليهم للإشارة إلي أنه خاص بهم دون المؤمنين والعائد علي الموصول (الذي) محذوف تقديره الذي يوعدونه، أو يوعدون به.

---

(١) الأثر خرجه الحاكم في المستدرك، كتاب التفسير ٢ / ٥٣٤، وقال. صحيح الإسناد ولم يخرجاه، وقد وافقه الذهبي.

(٢) الأثر خرجه الطبري في جامع البيان ٢ / ٢٧٢.

(٣) معاني القرآن وإعرابه للزجاج / ١ / ١٦٠.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

والمقصود بذلك اليوم هو يوم القيامة، إذ هو الأنسب لما في صدر السورة من صدق الوعيد، وثبت بالدليل القطعي ذلك القسم الأكيد، ولما في صدر السورة التي بعد هذه السورة، إذ هي امتداد لهذه السورة في بيان الوعد والوعيد.

وقيل المراد بذلك اليوم، يوم بدر، لأنه الأوفق لما قبله حيث إنه ذنوب من العذاب الدنيوي.[1]

ولا مانع من حمل كل من الأمرين على الآية، إذ اليوم مضاف إليهم، فالهلاك الخاص حاصل لهم في الدنيا وفى الأخرة، فكل شقي كفر بالوعد والوعيد فإنه يجمع عليه عذاب الدنيا وعذاب الأخرة، لأن الوعيد حتمي في كل منهما، كما أنه الوعد للتقي المؤمن بالنصر والثواب وحسن الحال في كل منهما.

وإيثار كلمة (الويل) عن غيرها من ألفاظ الهلاك مدلوله العام الهلاك، ولذا فالعذاب حاصل

للمعاندين المكذبين في الدنيا والأخرة، ومفهوم الإنتفاع للمؤمنين بالتذكير يشير إلي ما يتنعمون بوعده الذي لا خلف فيه في الدنيا والأخرة.

• معنى الآيات:

هذه الآيات مؤكدة ومقررة لمضمون الأمر بالعبادة قبل فأخبر سبحانه أنه لم يخلق الجن والإنس لحاجة منه إليهم ولا ليربح عليهم، لكن خلقهم جوداً وإحساناً ليعبدوه فيربحوا هم عليه كل الأرباح.

فالغاية المطلوبة من خلقه هي عبادته التي أصلها كمال محبته، وهو سبحانه يحب أن يعبد، كما يحب أن يثنى عليه ويذكر بأوصافه العلي وأسمائه الحسنى.

---

(١) روح المعاني للألوسي م ٩ ج ٢٧ / ٢٥.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

وهو سبحانه يحب نفسه أعظم محبة ويحب من يحبه، وخلق خلقه لذلك وشرع شرائعه وأنزل كتبه لأجل ذلك، وأعد الثواب والعقاب لأجل ذلك، وهذا هو محض الحق الذي به قامت السموات والأرض، وكان الخلق والأمر.

فإذا قام به العبد فقد قام بالأمر الذي خلق له، فرضي عنه صانعه وبارئه وأحبه.

فإذا صد عن ذلك وأعرض عنه وأبق عن مالكه وسيده أبغضه ومقته، لأنه خرج عما خلق له وصار إلى ضد الحال التي هو لها فاستوجب منه غضبه بدلاً من رضاه، وعقوبته بدلاً من رحمته.

فهو سبحانه لم يخلق خلقه ليتكثر بهم من قلة، ولا يعز بهم من ذلة، ولا ليرزقوه ولا لينفعوه ولا ليدفعوا عنه، فهو سبحانه الغني الحميد من كل وجه وخلقه محتاجون إليه من كل وجه فقراء إليه من كل وجه.

فما خلق سبحانه الجن والإنس لحاجة منه إليه، بل لنفعهم والإحسان إليهم، وقد خلق كل شيء لهم، ما أراد منهم إلا أن يعبدوه لا يشركوا به شيئاً، وهذا حقه عليهم.

ولذا فالذين وضعوا التوحيد والعبادة لغيره من المخلوقين فهم الظالمون العريقون في الظلم، الذين أوقعوا الأشياء في غير موقعها، وهؤلاء الذين بهذا الوصف لهم حظ عظيم من العذاب طويل الشر، وذلك مثل نظرائهم من الظالمين المكذبين، فلا يستعجلون العذاب، إذ هو آتيهم لا محالة فلا يجئ قبل أوانه.

فالهلاك والشر كله لأولئك الذين جحدوا وستروا ما ظهر من هذه الأدلة السمعية والحسية والعقلية التي لا يسع عاقلاً إنكارها، وذلك يوم يداهمهم العذاب الذي طلبوا سرعة مجيئه في الدنيا والآخرة ولا فكاك لهم منه، وذلك بصدق الوعيد الذي

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

توعدوا به، وقد انطبق بهذا آخر السورة على أولها بصدق الوعيد، ووافق آخرها أولها، وصدرها مع عجزها، في غاية التمام، وأتم بيان وتبيان لحقيقة الوعد والوعيد، المستلزم للبعث والنشور بعد الموت والجزاء والحساب، ولا يظلم ربك أحداً.

* بعض ما يستفاد من الآيات:

١ - امتنان الله تعالى على خلقه، بأن خلقهم ورزقهم حتى يستمر النسل من كل جنس ويعمر الكون.

٢ - الله تعالى غني غنى مطلقاً، والخلق جميعاً مفتقرون إليه محتاجون إلى فضله، وهم عبيده، فلم يطلب منهم رزق أنفسهم ولا غيرهم، بل هو الرزاق لجميع الخلق.

٣ - جميع الخلق محتاج لأن يطعم، فهو وحده سبحانه يطعم خلقه ولا يطعم، لعدم احتياجه.

٤ - احتياج الخلق إلى الرزق و الإطعام لذواتهم، فهم لا يستغنون عن ذلك بوجه من الوجوه.

٥ - إثبات كمال القدرة لله تعالى، وكمال القوة، وكمال العلم والإحاطة والفضل.

٦ - العذاب الطويل المستمر لكل من وضع الشرك موضع التوحيد.

٧ - جزاء الظالمين العريقين في الظلم واحد، وهى قاعدة مقررة في القرآن الكريم، وهو أن الجزاء من جنس العمل.

٨- الكافرون هم الظالمون، والهلاك الشديد لهم يوم الوعيد الذي لا خلاف فيه.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

الخاتمة

وهكذا جاءت خاتمة السورة بما بدأت به، وهو بيان حقيقة الوعد والوعيد، وإقامة الأدلة السمعية والعقلية والحسية على حتمية وقوعه.

وقد جاء أولى هذه الأدلة، وهي من وسائل الإقناع في القرآن الكريم - خطاباً لمن ينكر هذا الأصل - وهو القسم فقد جاء على أحكم وجه، وجمال التشبيه من المقسم به والمقسم عليه.

ثم الدليل بما هو محسوس، عن طريق القسم كذلك وهو الطرق في السماء المختلفة كاختلاف الناس في الوعد والوعيد، ووجه الشبه بينهما.

ثم بالدعاء عليهم بالهلاك بعد ظهور الأدلة المقنعة للإيقان بالوعد والوعيد، والرد على استهزائهم بمثله ثم بيان حال الموقنين بالوعد والوعيد، وزيادة عملهم الصالح على ما طلب منهم إيقاناً بحقيته وزيادة حسرة أولئك الكاذبين بما يخبرون بحال المتقين.

ثم بإقامة الأدلة الحسية على حقية الوعد والوعيد وهي علامات دالة على كمال قدرة وإرادة الله تعالى وشمول علمه في إنفاذهما، بالتذكير بما في الأرض التي يعيشون فيها، وبما هو أقرب إليهم من ذلك وهي الآيات العجيبة الغريبة في أنفسهم، وهي ناطقة بكمال قدرة الله على بديع الخلق واستحقاقه للعبادة التى يرتب عليها الوعد والوعيد.

ثم إقامة الدليل عليه كذلك، عن طريق التشبيه البليغ الذي لا يختلف فيه أحد، وهو أن ما وعد به حق ثابت لازم، ما ينبغي أن يستراب فيه كما أنه لا يستراب في نطقكم أيها الخلق.

ثم إقامة الدليل على إنفاذ وعده ووعيده في الخلق في الدنيا، وذلك بذكر

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

القصص من الأمم السابقة ولدى المخاطبين ذكر بهم، لكي يكون هذا أنجع في إقناعهم وإقامة الحجة عليهم.

وقد ربط ذلك بما أقسم به في أول السورة، وذلك من أسرار القرآن، وعجائب تراكيبه في الربط بين ما أقسم به في أول السورة، والأدوات التي أخذ بها المعاندون المكابرون المكذبون بالوعد والوعيد من هذه الأمم وبدأ سبحانه بالقصة الأقرب لما ذكر قبلها، والجامعة بين الوعد والوعيد، الوعد بالخبر السار وهو ولادة إسحاق لإبراهيم عليهما السلام، وكرم إبراهيم مع خلق الله تعالى إيقاناً بوعده.

ووعيد ما أخبر به إبراهيم عليه السلام من شأن قوم لوط وتكذيبهم بالوعد والوعيد، وقد أخذهم الله بما يشبه ما ذكره من أدوات في أول السورة.

ثم ذكر قوم موسى، مع فرعون وقومه، وتكذيبهم كذلك بالوعد والوعيد، وقد أخذهم بما ذكر من أداة في أول السورة ثم ذكر ما كان من تكذيب عاد بالوعد والوعيد، وقد أخذهم بما أقسم به في أول السورة، وقوله (ما تذر من شيء أتت عليه إلا جعلته كالرميم) مع قوله: (الذاريات ذروا) صادق في الربط.

ثم ذكر ما كان من شأن ثمود، وتكذيبهم بالوعد والوعيد وقد أخذهم بما هو من مستلزمات ومتعلقات الريح وهو الصيحة والصاعقة.

ثم ذكر قوم نوح أول الأمم تكذيباً بالوعد والوعيد وقد أخرهم، لأن السوق يستلزم ذلك، إذ قد أخذوا بما هو شبيه بما أخذ به فرعون وملئه.

ثم دلل بما هو محسوس معقول، بأنه ما خلق من شيء سبحانه إلا وهو زوجان وهذا يشير إلى وحدانيته سبحانه وألوهيته وفرديته، والى أن من جملة الزوجين الوعد والوعيد الذي هما أصل الأصول.

وبعد ظهور هذا كله وجب على الخلق الفرار إليه وحده بعبادته، والإيقان

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

بوعده ووعيده.

ثم جاء التصريح بهذا، بأنه سبحانه ما خلق الخلق إلا لخصوص عبادته وحده، إذ هو المستحق لهذا، الموجب ذلك كون صفات الكمال والجلال كلها له وحده، ولذا فهو الذي يمن على خلقه بالرزق لعدم إحتياجه، ولغناه المطلق وفقرهم المطلق، ولقوته التي لا تدافع، ولضعفهم الذاتي.

ثم ختم الختام بما يهول له الولدان، وهو الويل الذي لا يقدر قدره أولئك البعداء البغضاء الذين جحدوا ألوهيته، مع إقامة هذه الأدلة الظاهرة الواضحة.

وذلك يكون في اليوم الذي كذبوا بوعده ووعيده يقع لهم فيه من الهول العظيم، والعذاب الأليم بسبب ذلك الجحود وذينك التكذيب، والذي ينعم فيه المصدقون المتقون في جنات النعيم، والرضوان الدائم، من رب العالمين ﴿ وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا﴾.

وكمل بذلك موضوع السورة من أولها إلي آخرها، وقد ربط بين أجزائها بما بدأ به أولها، وختم به آخرها، وجاءت في غاية الإحكام والإتقان، حتى بلغت التمام، في بيان الوعد والوعيد غاية البيان فسبحان من هذا كلام، ووراء ذلك ما وراءه. وحسبي أنني اجتهد.

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

المصادر والمراجع

١- المفردات في غرائب القرآن، لأبى القاسم الحسين بن محمد المعروف بالراغب الأصفهاني (ت ٥٠٢) ط. دار المعرفة – بيروت.

٢ – المصباح المنير، لأحمد بن حمد بن على المقري الفيومي (ت ٧٧٠ هـ). الحلبي وأولاده – مصر.

٣- مختار الصحاح، لمحمد بن أبى بكر بن عبد القادر الرازي (ت ٦٦٦ هـ). الأولى ١٩٦٧م، دار الكتاب العربي – بيروت.

٤ – معانى القرآن وإعرابه، لأبى إسحاق إبراهيم بن السري (ت ٣١١ هـ) ط. الأولى ١٩٨٨م. عالم الكتب – بيروت.

٥ – الوسيط في تفسير القرآن المجيد، للإمام المفسر أبي الحسن على بن أحمد الواحدي (ت ٤٦٨هـ) ط. الأولى ١٩٩٩م، المجلس الأعلى للشئون الإسلامية.

٦ – التبيان في أقسام القرآن، لأبى عبد الله محمد بن أبى بكر الدمشقي المعروف بابن قيم الجوزية (ت ٧٥١هـ).

٧ – الضوء المنير على التفسير، لابن قيم الجوزية (ت ٧٥١ هـ) جمع على الحمد.

٨ – الدر المنثور في التفسير المأثور، للإمام عبد الرحمن بن الكمال جلال الدين السيوطي (ت ٩١١هـ) دار الفكر- بيروت.

٩ – زاد المسير في علم التفسير، لأبى الفرج جمال الدين عبد الرحمن بن على ابن محمد الجو زي البغدادي (ت ٥٩٧هـ) ط. الأولى ١٩٦٥م المكتب

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

الإسلامي – دمشق.

١٠ – البحر المحيط، لأبى عبد الله محمد بن يوسف بن على بن يوسف بن حيان الأندلسي الشهير بأبي حيان (ت٧٥٤ هـ) مكتبة ومطابع النصر الحديثة – الرياض.

١١ – روح المعاني في تفسير القرآن والسبع المثاني، لشهاب الدين السيد محمود الألوسي البغدادي (ت ١٢٧٠هـ) دار الفكر – بيروت.

١٢ – نظم الدرر في تناسب الآيات والسور، لبرهان الدين أبى الحسن إبراهيم بن عمر البقاعي (ت ٨٨٥هـ) ط. الأولى ١٩٩٥م، دار الكتب العلمية – بيروت.

١٣ – حاشية الشهاب على تفسير البيضاوي.

١٤ – الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل، لأبي القاسم جار الله محمد بن عمر الزمخشري (ت ٥٣٨هـ) دار المعرفة – بيروت.

١٥ – حاشية الشيخ زاده على تفسير البيضاوي، محمد بن مصلح الدين مصطفى القوجوي الحنفي (ت ٩٥١هـ) ط. الأولى ١٩٩٩م دار الكتب العلمية.

١٦ – غرائب التفسير وعجائب التأويل، لتاج القراء محمود بن حمزة الكرماني (ت هـ) ط. الأولى ١٩٨٨م مؤسسة علوم القرآن – دمشق – بيروت.

١٧ – حاشية الجمل على الجلالين، للإمام سليمان بن عمر العجيلي الشهير بالجمل (ت ١٢٠٤هـ) دار الفكر – بيروت.

١٨ – الجامع لأحكام القرآن، للإمام أبى عبد الله محمد بن أحمد الأنصاري القرطبي (ت هـ) ط. الأولى ١٩٩٤م دار الحديث – القاهرة.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

١٩ - تفسير البغوي، لأبى محمد الحسين بن مسعود البغوي، حققه جماعة دار طيبة ط. الثانية ١٩٩٩م المدينة المنورة.

٢٠ - جامع البيان عن تأويل آي القرآن، لأبى جعفر محمد بن جرير الطبري (ت ٣١٠هـ) ط. ١٩٨٨م دار الفكر - بيروت.

٢١ - تفسير القرآن العظيم، للحافظ عماد الدين أبى الفداء، إسماعيل بن كثير القرشي الدمشقي (ت ٧٧٤هـ) دار إحياء الكتب العربية - الحلبي - مصر.

٢٢- إرشاد العقل السليم في مزايا القرآن الكريم، لقاضي القضاة الإمام أبى السعود محمد بن العمادي (ت ٩٥١هـ)، دار إحياء التراث - بيروت.

٢٣ - المحرر الوحيد في تفسير الكتاب العزيز، لأبى محمد عبد الحق بن غالب ابن عطية الأندلسي (ت ٥٤٦هـ) تحقيق المجلس العلمى بـ (فاس) تحت مطابع فضالة المحمدية.

٢٤ - تفسير غريب القرآن، لأبى محمد بن محمد عبه الله بن مسلم بن قتيبة (ت ٢٧٦هـ) ط. ١٩٧٨م، دار الكتب العلمية - بيروت.

٢٥ - الإتقان في علوم القرآن، للإمام جلال الدين عبد الرحمن السيوطى (ت ٩١١هـ) تهذيب وترتيب الدكتور محمد بازمول، ط. الأولى ١٩٩٢م دار الهجرة للنشر - الرياض.

٢٦ - أسرار ترتيب القرآن، للإمام جلال الدين عبد الرحمن السيوطي (ت ٩١١هـ) تحقيق عبد القادر أحمد عطا، ط. الأولى ١٩٧٦م دار الاعتصام - القاهرة.

٢٧ - البرهان في علوم القرآن، لمحمد بن عبد الله الزركشي (ت ٧٩٤هـ)

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

تحقيق أبو الفضل إبراهيم، دار الفكر ط. الثانية » ١٤٠٠هـ - بيروت.

٢٨ - تفسير الرازي، المسمى أنموذج جليل في أسئلة وأجوبة من غرائب آي التنزيل، لمحمد بن أبى بكر الرازي (ت ٦٦٦هـ) ط. ١٩٩٠م دار الفكر - دمشق.

٢٩ - مجموع الفتاوى، لشيخ الإسلام أحمد بن عبد الحليم بن عبد السلام المعروف بابن تيمية جمع وترتيب عبد الرحمن بن قاسم، مطابع الدار العربية - بيروت.

٣٠- مشكل القرآن، لأبى محمد عبد الله بن مسلم بن قتيبة (ت ٢٧٦هـ) شرحه السيد أحمد صقر، ط. الثانية ١٩٧٣م، دار التراث القاهرة.

٣١ - وضح البرهان في مشكلات القرآن، للعلامة محمود بن أبى الحسن بن الحسين النيسابوري الغزنوي (ت ٥٥٥ هـ) ط. الأولى ١٩٩٠م - بيروت الدار الشامية.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner